كتاب الهلال



وثبة الإسلام

إبراهيم المصرى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١١٠ ــ ذو القعدة ١٣٧٩ ــ مايو ١٩٦٠

No. 110 — May 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٥ ١/٢ دولارات ــ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

وثبة الإسلام

وقصص مختارة فى الجهاد والوطنية

بقلم

ابراهيم المصرى

الإهداء

الى الشباب العربى

المتطلع الى العظائم ، الطامح الى مثل عليا في الوطنية والجهاد ، وفى شتى ظواهر التفـوق الفكرى والعاطفى والخلقى الجديرة بأن يعيش من اجلها الانسان •

أهدى كتابى هذا

ابراهيم المصرى

العرب

وثبة الإسلام

« كانت نفوس المسلمين بريئة ، وقلوبهم طاهرة ، وعزائمهم ماضية ، وايمانهم خلصا لوجه الله ، عندما اعتزموا فى عهد الوليد بن عبد الملك فتح بلاد الهند . وهذه القصة تمثل طولتهم فى الجهاد ، وشرفهم فى القتال ، وترفقهم بالنساء والشيوخ والاطفال ، وحرصهم الشديد على العدل ، ودعائهم فى النخوة والشهامة والحب الى أبعد حدود البذل والتضحية . »

كانت الريح تزأر ، والامطار تهطل ، والسماء ملبدة بالسحب ، والمدينة كلها سابحة فى جوف العاصفة ، كأنما هى توشك ان تستحيل الى كرة هائلة مقضى عليها بأن تتقاذفها الزوابع وتهددها الاعاصير ..

وكانت المعابد وحدها مفتوحة ، تتلألأ انوارها فى الظلمة الحالكة ، وتتصاعد من اعماقها فى الآونة بعد الاخرى صرخات الشيوخ ، وابتهالات الكهنة ، وتراتيل العذارى اللاتى وهبن انفسهن لخدمة الآلهة وانقطعن للعبادة فى الهياكل مدى الحياة

وكان « بانيان » المهراجا الاعظم ، حاكم ولايات السند الهندية ، قد أصدر امره بأن تظل المعابد مفتوحة ليل نهار ، وان تقام فيها الصلوات على نغمات الموسيقى ، وان تنحر فى ابهائها الذبائح وتقدم القرابين ، عسى ان ترحم الآلهة شعب الهند ، وتقيه ويلات الغزو ، وتصب فى عروق ابنائه دما جديدا ، يثير هممهم ، ويستنهض عزائمهم ، ويدفعهم الى المقاومة والمجالدة والكفاح

ففى تلك الليلة التى اضطرم فيها غضب الطبيعة ، وأطبقت السماء على الارض مسلطة عناصرها الجارفة على كل شيء حتى ،

كان المعبد الاكبر غاصا بالجماهير ، يختلج حركة وضجـــة وصخبا وحياة

فالطبول كانت تدق دقات عميقة رهيبة ، وآلات الموسيقى كانت ترسل الحانا مبتهلة مستغيثة ، وارهاط العذارى كانت تنثر الورود امام الهيكل ، وتنشد فى حرارة وحماسة نشـيد الانقاذ !

وكانت قد أقيمت فى رحبة الهيكل ثلاثة تماثيل : آلاول تمثال الاله « براهما » وهو فى زعمهم سيد الكون ، والثاني تمثال الاله « فيشنو » الذى انحدر منه ، والذى يمثل قوة المحافظة على الحياة ، والثالث تمثال الاله « سيفا » الذى انحدر من براهما ايضا ، والذى يرمز الى قوة الشر المهلكة

وفوق التماثيل الثلاثة ، وعلى بعد كبير منها ، كان ينهض تمثال « هندرا » ملك الآلهة ، الذى طالما اعتقد الهنود اذ ذاك ان له الف عين متفرقة فى أعضائه يبصر بها كل شىء ، وهو راكب على فيله الكبير ، وممســك باثنتين من ايديه الاربع سلاحه ، وواضع على كتفيه قوسه ، ومتقدم لمقاتلة اعدائه ..

فتجاه هذه الآلهة الاربعة ، كانت الطبول تدق ، والموسيقى تعزف ، والعذارى يبتهلن وينشدن ، و « مالينى » بنت المهراجا الاعظم جاثية امام الهيكل مبسوطة الذراعين ، مشرئبة الى ملك الآلهة (هندرا) تصلى وتتضرع فى صوت جهير ، وفي عبارات مشبوبة متوسلة

ونهضت مالينى بعد لحظة ورفعت ذراعها الى السماء وقالت وصوتها يتهدج ، وصمت الجماهير يرفرف عليها كاجنحة طائر غير منظور :

ــ ايتها الآلهة الرحيمة • ياهندرا المتيقظ الفطن الذي يلمح كل شىء ، ويا براهمـــا المجيد العظيم الذى نفخ الحركة فى الجماد ، ويا فيشنو الرائع الخالد الذى اوحى الى البشر قيمة

الحياة ، وياسيفا المتجبر المتسلط الذى يقف بالمرصاد لكل دنس وشر . ايتها الآلهة الرحيمة اغيثينا واهبطى علينا من سماء مجدك وانقذينا ! ..

فرددت الجماهير فى شبه اعوال :

ـ انقذينا ! .. انقذينا ! .

وصرخت مالينى :

ـ انقذينا من انفسنا ! .. انقذينا من خوفنا ومن جبننا ومن تواكلنا ! .. القوة ايتها الآلهة . امنحينا القوة والبأس والشجاعة والاقدام، والصبر والاحتمال ،والثبات والتحدى !..

واستدارت مالينى فى لفتة خاطفة كومضة البرق ، وواجهت الجماهير وصاحت :

ـ لقد ضاقت الآلهة ذرعا بنا . فلنكف عن السجود امامها وان كنا نعبدها . يجب ان نقف . يجب ان ننهض . فانهضوا جميعا ! .. احملوا سلاحكم ، وضموا صفوفكم وتأهبوا !

واردفت فى صرخة كأنها ضربة سيف :

ـ الخطر يتربص ، والعدو يتحفز ، والغزو يتقدم والمسلمون بالباب ! ..

فتعالت صيحات الجماهير :

ـ المسلمون ! .. المسلمون ! .

فاستطردت مالينى وهى تزفر :

ـ عادوا مرة اخرى ! .. انهم يدمرون الاصنام ، ويحطمون الاوثان ، ويستهزئون بالآلهة ، ويزعمون ان فردية عاتية هى التى صنعت هذا العالم ! ..

فضجت الجماهير مستنكرة وهددت :

ـ ويل للمجدفين ! ..

فاهابت بهم مالينى :

ـ بل الويل لكم انتم لوتراجعتم ، واستخذيتم ، وقبعتم

في دوركم أو في معابدكم ، متوسلين متضرعين خائرين ! ..
ان اجل راحتكم قد انتهى ! .. ان اجل راحتكم لن يتجاوز اياما معدودة ! .. بعد اسبوع . بعد أسبوع واحد يصل جيش المسلمين الى هنا ! ...

فاجفلت الجماهير ووجمت . فلم تمهلها مالينى ، وصاحت :

ـ حسبكم صلاة وانشدوا نشيد الانقاذ فقط ! ..

فعادت الجماهير تنشد وقد التهب عزمها ، واتقدت حماستها ، وخالط صرخاتها زئير الريح وانصباب المطر وهدير العاصفة

وعندئذ ، وفي غمرة الاضطراب النفساني الشامل الذى كان يكمن في اعماق النفوس ، ويبرز في تشوش انغام النشيد ، حانت من مالينى التفاتة ، فأبصرت من فرجة أحد ابواب المعبد فارسا ينهب الارض بجواده ، ويسرع الى المدينة وكأنه مطارد ملهوف . فوثب قلبها في صدرها ، واندفعت صوب الباب ، وجعلت تلوح بذراعها ، وتصرخ :

ـ قف ! .. قف ياميترا ! .

فترجل الفارس ، وربط جواده الى جذع شجرة ،ودخل المعبد منهوكا وهو يلهث ..

ولم يستطع أن يتكلم ، فأسعفوه بكوب ماء فاجترعه دفعة واحدة ثم القى بنفسه على مقعد ، وطفق يجيل البصر حوله كمذهول ..

ودنت منه مالينى ، وحدقت فيه وهتفت :

ـ ماوراءك ياميترا ، وعما أسفرت رحلتك ؟

فاختلج الرجل وصمت . ثم استجمع قواه وقال في صوت غائر وهو يرتعد :

ـ اصبح جيش المسلمين على مسافة يومين من هنا ! ..
لقد ابادوا الفرق الثلاث التى ارسلها الحاكم . وهم يتقدمون

كالسيل الجارف ويهددون العاصمة !
فصاحت ملينى :
ـ وماذا فعلوا بالقائد نارسا ؟
فاجاب الفرس :
ـ أخذوه اسيرا ، وطافوا به فى الشوارع وهو مكبل بالاغلال !

وطفر الدمع من عينى الرجل بالرغم منه ، واجهش بالبكاء. فثارت ثائرة ملينى ، وارتمت بين الجماهير فى وسط المعبد ، وقالت بأعلى صوتها وهى تتقدم جمعهم الزاخر المأخوذ :

ـ اتبعونى ! سأوقظ والدى ! سأحمل اليه النبأ ! وسيفتح لكم منذ الساعة ابواب الترسانة الكبيرة ويوزع عليكم السلاح !

واندفعت كمعتوهة ، وتبعتها الجماهير المائجة ، وانطلق الموكب تحت انصباب المطر ، يجأر ويتوعد ، ويهتف للحاكم ويطلب السلاح

ولما بلغ الموكب رحبة القصر ، وثبت مالينى ، واقتادت الفارس ، وصعدت به الى الطابق الاعلى حيث يقيم والدها

وفى مثل لمح الطرف ، برزت كتيبة من حرس الحاكم ، واتجهت الى الترسانة الكبيرة المجاورة للقصر ، وفتحت ابوابها، وشرعت توزع السلاح على الجماهير

وتملكت الجماهير نشوة مخبولة . فمضت تصرخ وتهتف وتتوعد ، مشرئبة الاعناق صوب مالينى ، التى سرعان ما ظهرت فى شرفة القصر ، وصاحت تخاطب الجماهير :

ـ ان واجب الجيش النظامى هو الدفاع عن مواقعه . أما واجبكم انتم فهو الدفاع عن كل شبر من ارضكم فيما لو انهزم الجيش ووطئت قدم العدو ارض المدينة !

فنكروا فى مصيركم وتأهبوا ! وليثق كل فرد منكم انالاسرة

الحاكمة بجواركم وانها لن تتخلى عنكم ابدا ! عودوا الآن الى بيوتكم • وسيشهد الشعب كله جهادنا ابتداء من صباح الغد!

فهللت الجماهير ،وشرعت تنشد نشيد الحرب ، وهى تتفرق وتتبدد تحت هبوب الريح ، وقصف الرعد ، وانصباب المطر



وكانت مالينى قد طلبت الى والدها ان يظهر فى صحبتها أمام الشعب ، ولكنه كان منهمكا فى التحدث مع الفارس ميترا، يستفسره عن حقيقة ما حدث ، ويحاول ان ينتزع منه سر هزيمة الفرق الثلاث التى كان قد ارسلها لمقاتلة المسامين

فلما أوصدت مالينى باب الشرفة ، ودخلت مخدع والدها ، ابصرته جالسا بجوار الفارس ميترا ، محنى الظهر ، متساقط الرأس ، متداعى البدن • وابصرت الفارس مطرقا أيضا ، يمسح دموعه بكم ردائه ، ويحاول ما استطاع أن يشيح بوجهه كى لاتقع عيناه على عينى الحاكم ••

واسترابت مالينى من هذا المظهر ، وساورتها الشكوك فأهابت بوالدها :

ــ ما معنى هذا الصمت ، ولماذا أنت واجم ؟

فرفع اليها الحاكم عينيه ، وثبت نظره فيها ولم يجب • فقطبت حاجبيها مستنكرة وقالت :

ــ ولكني اجاهد أنا أيضا كما تجاهدون • ولقد قضيت فى المعبد اربعة أيام بلياليها احث الشعب على المقاومة والكفاح فمن حقى اذن أن اشاركم فى العمل ، ومن حقى أن أعرف كل شىء ••• فتكلموا ! أجيبونى ! ما سر هذا الصمت ؟ أينقصنا السلاح ؟ الم يقاتل جيشنا ببسالة أم ان احدا من رجالنا قد خان العهد وغدر بنا ؟ تكلموا ..

فهب الحاكم واقفا وقال لابنته وهو يحدق فيها ويرتجف :

ـ لم يستطع المسلمون سحق الجيش الثالث الا لان رجلا، رجلا عظيما ، رجلا منا ، من خالص دمنا ومن صميم أسرتنا ، باعنا لهم ، وأرشدهم الى خطة قائدنا !

فصرخت مالينى :

ـ ومن هذا الرجل ؟ واين هو ؟

فقال الحاكم فى هدوء مروع :

ـ انه هنا ! إنه معنا ! انه ابن أخى ! خطيبك وحبيبك « يوما » !!

فجحظت عينا الفتاة وغمغمت :

ـ هو ؟ أممكن هذا ؟ محال !

فصاح الحاكم بالفارس المطرق :

ـ تكلم ياميترا ولا تخف

فقال الرجل وهو لا يعرف كيف ينطق كما لو كان هو المجرم :

ـ لما انطلقت لاستكشف مواقع العدو ، انبطحت على الارض ،وطفقت أزحف حتى بلغت الخطوط الامامية . وقبل ان أصل اليها سمعت انينا طويلا ينبعث من خلف شجرة باسقة ، فاتجهت نحوها ، فاصطدمت ذراعاى بجسم رجل جريح . فتبينته فاذا به الضابط « كوبو » اقرب المقربين الى قائدنا الذى أسره المسلمون . ولما عرفنى بكى بكاء يفتت الاكباد . بكى من فرط الندم واعترف . اعترف لى بأن خطيبك الامير « يوما » هو الذى أوعز اليه بأن يفشى خطة القائد للعدو ، ابتغاء عقد صلح مع المسلمين ، يسفر عن تنصيب الامير يوما حاكما على البلاد بدلا من حاكمها الشرعى وقد فطن القائد الى المكيدة بعد فوات الوقت . فثار من الضابط بأن طعنه بخنجره متعمدا قتله ، ولكن قوات العدو هجمت فى تلك اللحظة ، فاندحر جيشنا ، واسر القائد ، وظل

الضابط ملقى على الارض تعـــذبه جراحـــه ويفترسه وخز الضمير ! ولقد روعني ما سمعت ، فعدت الى جوادى الذى كنت قد عهدت بحراسته الى احد القرويين ، وامتطيتـــه ، وأسرعت الى هنا !

وصمت الفارس وهو يرتجف . فقالت مالينى وهى تعض على شفتيها :

ـ ألهذا بكيت فى المعبد ولهذا تبكى هنا ؟

وتحولت صوب والدها واردفت وعيناها تلمعان :

ـ كيف يمكنك أن تقاوم فى غد عدوك ، بينما الخائن يعيش فى دارك ؟

فصاح الحاكم :

ـ الخائن هو خطيبك !

فقالت مالينى :

ـ وهو ابن اخيك ايضا ! فاذا كنت متأهبا للتضحية بأعز أفراد اسرتك ، فانا كذلك متأهبة للتضحية بالرجل الذى خان عهدى ما دام قد خان أهلى وبلادى !

فاضطرب الامير وقال :

ـ ليحاكم اذن صباح الغد

فصرخت مالينى :

ـ الخائن لا يحاكم بل يقتل ! ولا بد أن يقتل الساعة والا فاتت بقية الوقت !

وصعدت بصرها في والدها . فألفته ساهما شـــاردا . فثارت ثورتها وقالت :

ـ كيف يمكن ان تعد العدة للدفاع عن المدينة وهذا الرجل هنا ؟ سيتقدم المسلمون ويصبحون تجاه اســوارنا . وعنــدئذ تبرز صنائع الخائن فتطعننــا في ظهـــورنا ! يجب .. يجب القضاء عليه ، والا قضينا على أنفسنا !

وأهابت بالفارس وهي ترعد :

ـ اتبعني يا ميترا ...

فصاح الحاكم :

ـ الى اين ؟

فقالت فى سكون العزم والاصرار :

ـ الى حيث يرقد الامير يوما !

فحملق فيها والدها مستهولا ، ولكنها مشت ، وتبعها الفارس ، وظل الحاكم فى مكانه يشخص اليها ويرتعش ..

ولما اجتازت فناء القصر ، واقتحمت الجناح البعيد الذى يسكنه الامير يوما ، عرجت على غرفة قصية أقيم فيها شبه هيكل صغير للاله هندرا ، وجثت أمام تمثاله وصلت ، ثم مست بأصابعها يده الرابعة التى تحمل اناء التطهر ، ثم نهضت ، واتجهت بخطى ثابتة نحو مخدع الامير يوما

وكان الامير مستغرقا فى سباته ، يغط فى نومه تارة ويبتسم لأحلامه أخرى ، فدنت منه مالينى ، وانحنت عليه وتفرست .

لم تتفرس في عينيه اللتين كانتا تعبدانها ، ولا فى ابتسامته التى كانت تشرق كلما رآها ، بل تفرست فى الفرجة البيضاء الماثلة فى صدره ، ثم اختطفت خنجر الفارس واغمدته فى الصدر وهى تضم أسنانها كى لا ترتجف ..

وانتزعت الخنجر بنفس القوة التى اغمدته بها ، ثم هرعت الى والدها وقالت فى هدوء وهى تلقى امامه بالسكين الدامية :

ـ لم تجسر على قتل ابن اخيك ، ولكننى قتلت ابن عمى وخطيبى ! فى وسعك الآن ان تطمئن وتنصرف الى العمل !

وكرت راجعة الى الهيكل الصغير ، ومست بأناملها اناء التطهر ، ثم جثت امام تمثال الاله ، وشرعت تصلى .. !



وكانت جيوش المسلمين قد حاولت غزو الهند مرة فلم

توفق . فعادت الى غزوها فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك

ففي ذلك العهد جهز الوليد جيشا من ستة آلاف مقاتل ، وبعث به الى الهند تحت امرة قائد شاب يدعى محمد قاسم

وكان هذا القائد علي صغر سنه ، مشهورا برجاحة العقل واصالة الراى ، وسعة الحيلة ، وحسن التدبير والجمال الخارق . فأساليبه الماهرة فى استدراج العدو ، واضعاف شوكته ، والقاء الذعر فى صفوفه منذ الهجمات الاولى ، كانت موضع اعجاب رجاله ، ومثار الحديث فى دمشق كلها

ولقد تمكن بفضل بسالته ومهارته وشجاعة رجاله واستماتتهم فى القتال ، من أن يحرز النصر تلو النصر ، وان يستولي على معظم ولايات السند ، ويهدد مدينة حيدر أباد حيث يقيم الحاكم

والحق أن المسلمين كانوا اذ ذاك فى مطلع الجهاد وفى نضرة الحيوية . فنفوسهم كانت بريئة ، وقلوبهم طاهرة ، وعزائمهم ماضية ، وايمانهم الرائع الجديد يضفي على أبسط وأباس فرد منهم حلة فاتنة من العظمة الاصيلة ، وضوءا ساحرا من البطولة الفذة التى تهزأ بالموت لانها تعرف كيف تهزأ بالحياة

لم تكن قد أثرت فيهم أخلاق الامم الغريبة الدخيلة ، ولم تكن قد بهرتهم بعد مفاتن الترف ، وباعدت بينهم وبين روح الفطرة الخالصة ، وحافز العقيدة الاولى . فلما اعتزموا غزو الهند ، نفروا الى الجهاد فى حماسة المؤمن الصادق الذى يريد أن يقيم على هذه الارض مملكة الله . فدوخوا جيش العدو ، واحتلوا بلاده ، وأسروا قائده ، واتجهوا صوب مدينة حيدر اباد المحصنة العظيمة ، يهددونها بالحيلة تارة وبالسيف أخرى ، عسى أن تسقط فى ايديهم فتتوج نصرهم بمجد لا يمحي

وكان قائدهم الشاب محمد قاسم ، يلهب عزائمهم بصدق ايمانه ، ويستفز حميتهم بحسن تدبيره ، ويثير اعجابهم بحياته البسيطة ، ونزاهته العميقة ، وجماله الفتان

والواقع انه كان جميلا بقدر ما كان شجاعا . فوجهه الاسمر البيضاوى كان منسجم التقاطيع فى عزة ، دقيق القسمات فى هيبة ، مشرق المطلع فى براءة دونها براءة العذارى . وكان صارما فى تعقل ، قاسيا فى حكمة ، عادلا فى رحمة ، محبا الفقراء ، عزوفا عن الفحشاء ، مسلما بالفكر والعمل لا بالقول والمظهر

وكان أبغض الاشياء الى نفسه عصيان امر الخليفة فيما يتعلق بالنساء . وهذا الامر كان صريحا وقاطعا . فكل جندى مسلم كان ملزما بالترفق مع المرأة التى تقع فى قبضته . فاذا نكل بها حوكم وعوقب ، واذا استباحها عنوة وكانت ملكة او أميرة أو من بيت رفيع قضى عليه بالموت . أما اذا تزوجها فشرط العلاقة أن يعولها هى وأبناءها بعد أن تكون قد اعتنقت الاسلام

وهكذا كان الجيش يترفق بالنساء ما استطاع ، ويرأف بالاولاد ، ويبقى على الشيوخ ، ويتخذ من أمر خليفته الحازم ، ومن مسلك قائده الصارم ، واجبا وقدوة

فلما سقطت معظم ولايات الهند ، واقترب الجيش من مدينة حيدر اباد ، وأسر القائد الهندى ، وتم التفاهم بين محمد قاسم وبين الضابط « كوبو » على أن يشق الامير « يوما » عصا الطاعة على الحاكم ، وان يستعين بانصاره على خلعه وتسليم المدينة الى جيش المسلمين ، لما حدث كل هذا اطمأن محمد قاسم بعض الشيء . ولكنه حشد مع ذلك قواته ونظمها ، متأهبا كل التأهب لما يمكن ان يقع من طوارىء ، واتجه بالجيش نحو أسوار المدينة

وكان الحاكم بعد أن تخلص من الامير يوما على يد مالينى ، اسرع وقضى على انصار خصمه ثم جهز جيشه هو الآخر وبعث امام الاسوار بخمسين الف مقاتل تولى قيادتهم بنفسه

واستفاق المسلمون ذات صباح ، واذا بهم حيال جيش جرار يربى عدده على عددهم ، فبهت محمد قاسم وادرك ان الحيلة لم تعد تجدى ، فتهيأ لدخول المعركة

ولكى تلهب مالينى روح الحماسة فى صدور الهنود وتلقى الذعر فى أفئدة القوات المهاجمة ، أشارت على والدها بأن يقطع راس الامير يوما وان يلقى به من فوق الاسوار على جيش المسلمين

فلما ابصر محمد قاسم رأس الامير استشاط غضبا ، وجمع رجاله على الفور ملهبا عزائمهم ، ثم وقف فيهم خطيبا وقال :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، أدعوكم الى قهر الشرك ، ونصرة الحق ، واعلاء كلمة الدين ! فهبوا الى الجهاد جذلين مستبسلين ، وقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون واذا كتب النصر لكم ، فاياكم والاستبداد بالضعيف . أنتم مؤمنون ، والكفرة هم المستبدون

كونوا أقوياء ورحماء . فالقوى الذى تجاوز ضرباته الهدف يشبه الضعيف الذى لن يصيب قط أى هدف

كونوا متآزرين متساندين ، بنيانا شاهقا مرصوصا يشد بعضه بعضا . واعلموا أن كل هزيمة مصدرها التردد ، وأن شر ما يمكن أن يصيب الانسان هو أن ينقسم على نفسه

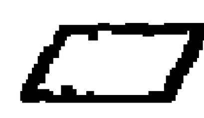
كونوا مطمئنين متفائلين ، فالمستقبل أبدى الخصب ، عامر البطن بالنزوات ، قد يلد فى اية لحظة كل عجيبة . فلا تيأسوا من المستقبل حتى ولو فقدتم فى ليلة حالكة آخر نجمة كانت تتعلق بها عيونكم

كونوا أعزاء متعففين ، فالملذات تنهك الانسان أكثر من الفقر

اصبروا على أعدائكم ، فنور اسلامكم لابد أن يشرق عليهم . ولسوف يقهرهم الزمن ويوقظهم . فالزمن يشبه الصدأ كما يشبه النار . وهو كالصدأ يهرأ الباطل وهو كالنار يصهر الحق

لا ترهبوا الموت فالموت يلد الحياة ، وكل خطر ينذر بموت انما هو بشير بفرج فى الدنيا او بعث فى الآخرة مكفول الثواب

فباسم الله جاهدوا وتقدموا . و« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » !



وانقض المسلمون وبدأت المعركة

وكان القتال بالسيف والرمح والنبال . فتفوق الهنود اول الامر وزحزحوا المسلمين عن مواقعهم . ولكن محمد قاسم الذى كان يقاتل وسط رجاله كالاسد ، أصدر أمره الى الجنود بالتقهقر ، فتراجعوا . فجمع شملهم ، وضم صفوفهم ، وقسمهم الى خمس فرق ، ركز اثنتين منها تجاه أضعف أجنحة جيش الحاكم ثم حمل بهما فى هجوم مفاجىء ، فانهار جناح العدو الايسر . فأصدر محمد قاسم أمره بالهجوم العام قبل أن يسرع الحاكم بارسال النجدة الى جيشه المنهزم

ودب الاضطراب فى صفوف الهنود ، وانتشرت بينهم الفوضى . فتراجعوا مذعورين وجيش المسلمين يطاردهم ، حتى بلغوا أسوار المدينة ، ففتحوا أبوابها ودخلوا ، ثم أوصدوها خلفهم ، ثم تسلقوا أسوارها ، وشرعوا يقاتلون الجيش الظافر برشق النبال

وبدأ حصار مروع هائل . فالقوات المهاجمة كانت تحاول تسلق الاسوار ، فتقابل بوابل من النبال والحجارة والرمل

والزيت المغلي ، والقوات المدافعة كانت تستبسل فى القتال ولكن الذخيرة كانت تنفد منها شيئا فشيئا ، وتلقى بها فى ظلمة اليأس امام القدر المحتوم

وشاء الحاكم أن يضرم نار الامل والبأس فى صفوف رجاله ، فتسلق الاسوار بنفسه ذات صباح ، وقاتل فى المقدمة ساعة كاملة ، ولكن نبلا أصابه فسقط صريعا مضرجا بدمه وسط هتاف المسلمين

بيد ان هذا الحادث لم يفت فى عضد الهنود ، فأسرعت مالينى ، وتولت هى قيادة الجيش ، ونظمت توزيع الاغذية على الجنود والشعب ، واستأنفت المعركة فى صلابة المرأة التى تزين لها كبرياؤها أن الاقدام الجنونى هو الحكمة ، وأن فى وسع العناد الاعمى أن يتفوق على كل شىء

وكان من أثر ذلك أن انتشر الجوع فى المدينة ، وفشت الامراض ، وتفاقم الدعر ، ويئس بعض أفراد الشعب من سلامتهم ، فودعوا نساءهم وأولادهم ثم أحرقوهم بالنار خوفا من وقوعهم فرائس للمرض والجوع

عندئذ جن جنون مالينى . استشعرت الهزيمة الماحقة ، والنهاية الفاجعة ، والاسر ، والذل والتشرد ، والعذاب . فاشفقت على قومها ، واشفقت على نفسها ، وغلى فى صدرها مرجل الكبر والحقد والكراهية . فقدجت زناد فكرها ، وأهابت بدهاء جنسها ، وفكرت فى الاقدام على عمل خارق فذ رهيب ...

واقشعر بدنها لمجرد تصورها ما سوف يكون . ثار اشمئزازها ، وتأبت أنوثتها ، وتمردت أعضاؤها واحشاؤها وكل ما فيها من شباب وفتنة لم تعبث بهما يد انسان . ولكنها كبحت جماح كبريائها ، وخنقت فى أطواء جسمها صرخة نفورها ، وعزمت ... عزمت آخر الامر أن تعتمد

على شخصها ، وعلى دهائهـا ومكرها وروعة حسنها ، وأن تذهب فى جراة وبسالة ومغامرة وتضحية ، فتواجه البطل محمد قاسم بنفسها ! . .

وملكتها الفكرة واحتواها العزم . فلم تتردد ، وأسندت القيادة الى أحد الضباط ، ثم بعثت من فورها الى محمد قاسم جنديا يحمل راية بيضاء ، أبلغه ان القائد العام يطلب هدنة ، وأن رسول القائد فى طريقه الى معسكر المسلمين ...



وكان الوقت ليلا عندما طرح الهنود السلم الخشبى من فوق الاسوار ، وهبطت مالينى درجاته ونزلت الى معسكر العدو

وكانت ترتدى ثوبا أسود يجللها من قمة الراس الى أخمص القدم ، كما كانت تستر وجهها بنقاب أسود مستطيل ، وتحمل فى يدها زهرة سوداء أيضا قيل لها انها تجلب الحظ وتصرف الروح الشريرة ...

وكانت الخيام منصوبة ههنا وهناك ، والجيش العربى راقد ، والسكينة سائدة ، والريح تصفر الآونة بعد الاخرى ، فتهز الاطناب ، وتبعث فى أعماق النفس شعورا غامرا بالخوف والرهبة

وكان القائد المسلم قد أوصى تابعه باستقبال الرسول . فلما هبطت مالينى الى الارض ، دنا منها الرجل ، وأشار اليها فتبعته بخطى وئيدة ، وقلبها يخفق ، وأنفاسها من فرط جهد التمالك والكبح تتعاقب وتكاد تخنقها

وكانت قد جرت العادة فى تلك الحرب ، بأن تحترم الرسل وتقدس اشخاصها ، وتمنح الأمن الكامل والثقة المتبادلة ، فلا تمتهن ، ولا تفتش ، ولا تلقى على تصرفاتها اية مظنة من الريب

وهكذا لم يستغرب التابع مظهر مالينى ولم يطل التحديق اليها ، بل قادها الى خيمة القائد ، ثم تنحى وانصرف

ورفعت مالينى ستار الخيمة فى رفق ودخلت . وما كادت تدخل حتى تراجعت وصمدت وفغرت فاها كبلهاء . .

ابصرت شبه حجرة عارية ، عارية من كل زخرف . فى زاوية منها مقعد صغير ينهض تجاه منضدة ، وفى زاوية اخرى اناء واسع وكوز ماء ، وعلى الارض حصيرة مستطيلة فرشت عليها حشية تعلوها وسادة واحدة ، طرحت فوق قطعة كبيرة من الخشب

وكان محمد قاسم متربعا على الحشية ، موليا وجهه شطر الباب ، يعبث بمسبحته الكهرمانية وينتظر

فلما دخلت مالينى ، لم يتحرك ، بل نظر اليها ، ثم انعم النظر فيها ، ثم هب واقفا ، وقد تخطفه ضوء المصباح الخافت المعلق فى وسط الخيمة ، فأبرز جماله الخارق ، وأحاله الى شبه ملك يسبح فى أمواج متراقصة من نور . . .

وقال مقطبا حاجبيه :

ــ امرأة ؟

فانتفضت مالينى ، وأجابت فى صوت ناعم رقيق ، وفى عبارة عربية سليمة :

ــ انا رسول قومى اليك . . وأهل بلادى عندما يقدرون بطلا من الابطال يخرجون لاستقباله وعلى رأسهم امرأة !

فبهت محمد قاسم وقال :

ــ تتكلمين العربية ؟ ولكن من . . . من علمك لساننا ؟

فأجابت وصوتها الناعم الحار يفعم الجو حولها بالعبير كأنه ينبعث من قلب وردة :

ــ تعلمته على يد فارس من فرسانكم أسره جدى أبان غزوتكم الاولى ــ ولقد توقعت بلادى عودتكم فنشط البعض

من أهلها الى تعلم لسانكم رغبــة فى اقتباس أحــدث فنون السياسة والحرب منكم . فلا تدهش ايها القائد ، واعلم ان الهندى يعرف كيف يعجب ويقدر ، كما يعرف كيف يقــاتل ويموت !

فصاح محمد قاسم وقد راعته فصاحة الرسول وارابته :

ـ اسفرى عن وجهك ايتها المراة !

فتقدمت مالينى الى وسط الخيمة ، ووقفت تحت المصباح ثم رفعت يدها ، ونزعت نقابها الاسود المستطيل

واندفق النور الى وجهها ، فتطلع اليها القائد وجمد ... كانت جبهتها ناصعة كصفحة المرمر ، وعيناها متألقتين كحجرين كريمين، واهدابها رفافة كالاجنحة ، وانفها معتزا كحد السيف، وفمها ناتئا قرمزيا كثمرة ناضجة ، يثير الرغبة فيها طابع حسن جاثم فى عمق الذقن كما يجثم الحب فى شغاف القلب وفى لب الحياة ...

ونظر اليها القائد وأخذ ، فنظرت اليه بدورها ، وتأملته فى ضوء المصباح ، ودبت رعدة فى أوصالها ..

لم تستطع وهى تخالسه النظر أن تنطق . فطلعته المشرقة البريئة فتنتها ، وهيبته الواثقة المعتزة سحرتها ، وصــفاء تقاطيعه الدقيقة المنسجمة راعها وروعها . فمضت تحــدق اليه ، وتقارن على الرغم منها بين جماله وجمال الاله براهما .

وسادت فترة صمت . وظل كلاهما تائها فى الآخر شبه مأخوذ ...

وفجأة لوح محمد قاسم بذراعه كأنه يطرد طيفا يلاحقه ، وصرخ :

ـ من انت يا امرأة ، وما رسالتك ؟ تكلمى ..

فصوبت اليه من خلال أهدابها الرفافة نظرة فاحصة وقالت وهى تتباعد عنه :

ـ أنا بنت الحاكم الذى قتلتموه . وقد جئت اليك التمس

منك الرحمة لبلادى!

فزوى القائد ما بين حاجبيه، وقال فى لهجة باترة:

ــ اما التسليم واما مواصلة الحصار. هذا كل ما عندى!

فدنت منه، ورنت اليه، ثم أمالت راسها على كتفها، وقالت وهى تموج صوتها الرخيم كما يموج الهواء اللحن البعيد الشجى:

ــ وما قيمة فتح المدن والامصار، والتهالك على مجد دنيوى باطل؟ اليس التمتع بنعيم الحياة فى بحبوحة السلم خيرا من الظفر بالمجد تحت ظلال السيوف؟

فهتف محمد قاسم:

ــ الجنة تحت ظلال السيوف. ونحن لم نغز بلادكم الا رحمة بكم وهداية لكم، وبعثا سرمديا خالدا فى رحاب الجنة لكل من يؤمن منكم؟ فأفيقوا من غشيتكم وتأملوا.. ان عبادة الاصنام أهلكتكم، والخرافات ختمت على أبصاركم، واستبداد الجشعين المتسلطين من زعمائكم أحال شعبكم الى قطيع من السائمة، يفتك به الجهل والمرض والجوع! بأى حق يستعبد امراؤكم سواد الشعب؟ باى حق يستحل مهراجاتكم عرق الفقير؟ باى حق يجيز المجتمع عندكم زواج الطفلة التى لم تشب عن الطوق، وحرق الارملة المسكينة التى لا جريرة لها ولا ذنب؟ انها الهمجية يفرضها عليكم المغرضون من سادتكم ليجعلوا منكم أمة من العميان! ولقد جئناكم بالهدى فاهتدوا، نقر السيف فى غمده، ونصبح اخوة نستطرد الجهاد سويا فى سبيل الله!

فرمقته مالينى بنظرة متطلعة متفرسة، وقالت:

ــ ومن هو الله هذا؟ ألا يكون هو الرب هندرا الذى يؤكد البعض أنه انحدر من صلب رجل وتجسد ثم حلق فى السماء ونفخ روحه فى الارباب جميعا؟..

فهتف محمد قاسم :

ـ الله نور السموات والارض ! .. الله أحد .. الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

فقالت مالينى متعجبة :

ـ وبراهما ، وفيشنو ، وسيفا ، من تكون اذن ؟

فصاح القائد :

ـ أنصاب من حديد أو تماثيل من رمل وطين ! رجس من عمل شيطان يوسوس لكم ، ان الخليقة هى الخالق ، وان الظلام هو النور ! ذلك هو الكفر بعينه . ولقد كفرتم بآيات الله ، فانتم انتم أصحاب الجحيم !

فدنت منه مالينى مشرئبة اليه بعنقها ، متثنية بجمع اعضائها ، تحاول أن تلفح وجهه بحرارة انفاسها ، وان تذيب ارادته تحت وقدة انوثتها :

ـ دع أصحاب الجحيم وشأنهم .. مالنا ولهم .. انهم كما تقول سائمة يهش عليها الراعى بالعصا .. ولكن انت ، ماجدواك أنت من مقاتلة أمثالهم ، ومن نصر تقيمه على كومة من الاشلاء والانقاض ؟ لن تصل اليهم ابدا دعوتك ! لن يفهموك! أنا .. انا وحدى التى يمكن ان أفهمك واقدرك ! أنا وحدى التى يمكن أن اهتدى بهديك واتبعك ! النور المنبعث منك بهر عينى . السحر المتدفق من كلامك أسر عقلى . الصفاء المشع من روحك غمر كيانى وخلب دمى !.. فافرض على أى ايمان شئت ولو كان عبادة الجن وخذنى .. خذنى يا محمد قاسم ولكن اعف عن شعبى ووطنى !

وتراجعت خطوة ، وفى مثل ومض الطرف ، نضت عنها ثوبها الاسود . فسقط الثوب على الارض ، وبرزت مالينى فى ضوء المصباح عارية لا يستر بدنها شىء !

وشخص اليها القائد بعينين جاحظتين وذهل .. اراد أن

يزجرها . ان يصرخ فيها . أن يأمر بطردها . ولكنه جمد في مكانه ، ولم يستطع أن يشيح بوجهه عنها . فتأملها بالرغم منه وهو ثابت . خلب لبه ذلك الجسد الناضر كالزهرة ؛ اللامع كالفضة ، المتماوج كلجة الشهوة ، الصقيل كمرمر التماثيل . فخطا خطوة واحدة ثم توقف ، ثم عض على شفتيه وضم قبضتيه وصرخ :

ـ الى الوراء أيتها الوثنية الفاجرة .. الى الوراء ! انصرفي .

فجثت عند قدميه ، وعانقتهما بذراعيها ، وقالت وصوتها يتهدج ، والدمع يوشك أن يطفر من عينيها :

ـ خذني يا محمد وارحل !... كف عن محاصرة بلادي . كف عن غزو شعبي ، اخلص لك مدى الحياة ، واتبعك الى أقصى العالم ، واصبح أسيرة و « عبدة » لك !

فاضطرب محمد قاسم لحظة . ولكنه أسرع وصاح :

ـ استري .. استري بدنك يا امرأة ... خذي ..

والتقط الثوب الاسود ، ثم غض عن بصره ، والقاه عليها صائحا بها وهو يدفعها الى الباب :

ـ اذن فقد جئت للتغرير بي . جئت لتقديم شبابك وجمالك ثمنا لخيانتي ؟ لقد نقضت عهد رسل الحرب وعبثت بنزاهتهم . ففي وسعي الآن ان آمر بقتلك عقابا لك . ولكني أعفو عنك لطيشك وسذاجتك ، فاذهبي !

فهبت واقفة ، ونظرت اليه ، وقالت والخيبة تمزقها ، واللوعة تنهشها وعينها الحاقدة الفاتكة تقدح الشرر :

ـ كان في وسعي أنا أيضا ان أغدر بك واقتلك . ولكني لو كنت قد قتلتك لأسلمت بلادي كلها فريسة لانتقام جيشك المتفوق .. لهذا جئت اخاطب فيك الغريزة والقلب عسى أن اثير فيك عامل الحب وعامل الرحمة . فأما وانت كما أرى ميت الغريزة متحجر القلب فاسمع اذن .. لقد أحببتك ! أجل

انا أحبك ! أحبك يامحمد الظافر القاسي الجميل ! احبك على الرغم منى وعلى الرغم من شعبى وعلى الرغم من آلهتى . ولكنى أحب أيضا وطنى ، وأكرهك لانك عدوه .. ولابد ، لابد أن أثأر منك وان كنت قد أصبحت منذ اليوم يامحمد قاسم سيدى وملكى ومعبودى !

وحدقت اليه وأردفت :

ــ انا ... انا التى قتلت الامير يوما . فاسهر على حياتك انت أيضا أيها القائد واحذر !

وارتدت ثوبها الاسود وأسدلت النقاب على وجهها ، وخرجت مرفوعة الرأس ثابتة الخطى ، دون أن تلقي على القائد المشدوه نظرة .. وما أن اختفت وساد الصمت فى الخيمة وتراقصت ظلال الضوء فى أرجائها ، حتى انفجرت عواطف محمد قاسم ، وعصفت به ، واجتاحته كالسيل العرم . فارتمى على الارض ورفع رأسه الى السماء ، وصاح وهو يضرب صدره بقبضتيه :

ــ لماذا ؟ لماذا ألقيت فى قلبى حب هذه الوثنية الكافرة يا الله ؟

وركع محمد قاسم ، وغمغم :

ــ ربى لاتزغ قلبى بعد أذ هديتنى ، وهبنى من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب

وظل يصلي ، مغالبا نفسه ، كابحا اهواءه ، كاظما غيظه ، موطنا عزمه على الثأر من عواطفه ، والثأر من مالينى بتأدية راجبه العسكرى والدينى على اكمل وجه مستطاع

اما مالينى فقد كانت اعنف منه فى الشعور بالحب ، كما كانت أعنف منه فى التلهف على شهوة الانتقام . كانت تحب بقدر ما تبغض ، وتعشق بقدر ما تستنكر ، وتود من أعماق قلبها أن تثأر لكرامتها وكبريائها ووطنها بأن تطعن محمد قاسم فى مقتل على الرغم من حبها العظيم له !

فلما خرجت من خيمته واستقبلها ظلام الليل ، لمحت عن بعد شبح التابع العربى الذى اقتادها ، يتقدم نحوها ليعود بها من حيث أتت . فتريثت لحظــة وفكرت . ثم أسرعت فمزقت أطراف ثوبها ، ونزعت النقاب عن وجهها ، وحلت جدائل شعرها ، وكشفت عن صدرها ، وانطلقت صوب التابع محاولة جهدها أن تشيع فى أعضائها رعدة الذعر ، وفى قسمات وجهها سمات الالم واللوعة والحسرة والانسحاق ... ودنا منهـا التابع ، ولم يكد يتبين أنها امــرأة ، وأنها ملهوفة مذعــورة ممزقة الثياب وشبه عارية ، حتى قطب حاجبيه ، ونظر الى الخيمة ، وساوره الشك . فابتدر مالينى قائلا وهو يحدق فيهــا :

ـ ماذا أيها الرسول ؟ ... ما بك ... تكلم ... علام ترتجف هكذا ؟

فلم تدعه يتم عبارته حتى أجهشت بالبكاء . بكت واعولت ولطمت وجهها ، وقالت وهى تنشج وتتلوى :

ـ لقد اغتصبنى ! .. لوثنى ... انتهكنى وأنا عذراء !.. انها جريمة ... جريمة ... وأنا أعلم أن أمر خليفتكم يقضى بالموت على كل من يغتصب ملكة أو أميرة . فكيف بأميرة هى رسول سلام وهى عذراء ، وهى بنت الحاكم ؟ ولكن لا تصرخ .. لا تفش السر ! ان انت أفشيته تحديت القائد واستهدفت لانتقامه . سيقتلك ويقتلنى أنا لا محــالة . وأنا أريد أن أفى بعارى ... أريد أن أرحل ... أريد أن أنقذ حيــاتى ... فخير لى ولك أن نصمت !

وارسلت انة طويلة ، وترنحت على نفسها . فاشفق عليها التابع وهو يدمدم ويرتعش ، وسترها بعباءته ريثما تصــل الى الاسوار . فاستندت الى ذراعه ، وقالت وهى ترنو اليه بعينيها المتقرحتين :

ـ ولكن ما اسمك ؟ ما اسمك ايها الشهم النبيل ؟
فاجاب الرجل :
ـ أنا الصالح بن نويرة ، تابع القائد وملازمه
فهتفت مالينى وهى توشك أن تتداعى وتسقط :
ـ أنا جائعة ! الحصار أهلكنى ! لم اتناول طعاما منذ يومين! فهل لك أن تجيئنى بكسرة خبز ؟ الى أين ... الى اين انت ذاهب ؟ لا تدعنى وحدى ! أنا خائفة منه ! الظلمة تروعنى !
فقال وهو ممسك بيدها :
ـ اتبعينى ...
فرددت وهى ترمق من طرف خفى :
ـ أنا جائعة ... جائعة ... الى اين تذهب بى ؟
فاجاب :
ـ الى صوامع الذخيرة حيث اسعفك بشىء من الخبز والتمر والعسل ...
فلمعت عيناها ، وتبعت الرجل وهى تلهث . ولما اكلت وشربت ولاحظت عن كثب موضع الصوامع وعرفت موقعها من الاسوار ، شكرت التابع ، بل غافلته وقبلت يده ، ثم استدارت ، وعادت فى صحبته ، وصعدت درجات السلم الخشبى وهبطت من السور الى المدينة
وما كادت تبشر قومها وتحس انها بين أهلها وعشيرتها ، حتى استردت أنفاسها ، واستجمعت قواها ، ويممت وجهها من فورها شطر معسكر القائد الهندى ، مشرقة الطلعة ، ظافرة النظرة ، تهز راسها هزا وئيدا ، وتنذر عدوها وحبيبها محمد قاسم بشر داهم وويل مستطير
ولم تتردد ، وامرت القائد بأن يعد على عجل فرقة كبيرة من الفدائيين ، وأن يزود كل رجل من رجالها بمشعل ، وأن يباغت العدو بهذه الفرقة ، فيلقى بها من فوق الاسوار

فى اتجاه صوامع الذخيرة ...

ونشط القائد لتنفيذ الامر فجمع نخبة من الرجال الاشداء المغامرين ، وأرشدهم الى موقع الصوامع ثم اعلن العدو بانتهاء الهدنة واستئناف القتال

وفجأة تجمع الفدائيون فى أعلى الاسوار ، ثم اقضوا منها على معسكر المسلمين ، ثم اتجهوا كتلة واحدة نحو صوامع الذخيرة والمؤن بعد ان اوقدوا مشاعلهم وجعلوا يلوحون بها فى الفضاء

وذعر محمد قاسم ولكنه لم يستريب ابدا بمالينى لا هو ولا الصالح بن نويرة . لم يشك فيها لحظة واحدة . اعتقد انها مكيدة دبرها القائد الهندى . فأسرع وأحاط الصوامع بجزء كبير من جيشه ، ودافع عنها دفاع المستبسل المستميت بيد أن الفدائيين وقد ذهبت بألبابهم نشوة المغامرة والمباغتة ، سبقوه الى الصوامع وطفقوا يرشقونها بمشاعلهم

واضطرمت فيها النار . فدب الحنق فى قلوب المدافعين . فضموا صفوفهم ، وجمعوا شتاتهم ، وارتدوا على الفرقة المهاجمة وأعملوا السيف فى رقاب أفرادها حتى أبادوهم جميعا ، وأنقذوا البقية الباقية من الصوامع الشامخة المتنقلة التى تداعى أكثرها واستحال الى كومة سوداء غمرتها الجثث والدماء

وأحس محمد قاسم أن الدائرة قد تدور عليه ، وانه بعد أن فرض الحصار على عدوه قد يصبح هو المحاصر ، وقد يقاسى فى غد ويلات الجوع والمرض . فلم يتمهل ، ولم يضيع الوقت ، وانتهز فرصة الفرحة التى زعزعت يقظة الهنود ، وأسرع فانتهج خطة الاقدام والمبادرة ، وأصدر أمره الى الجيش كله بالتأهب لهجوم عام اما أن يسفر عن هزيمة ماحقة واما أن يكلل بفوز ساحق مجيد

وامتطى صهوة جواده ، وتجول بين رجاله وطفق يصيح :

ـ يريدون كيدا الا ان الذين كفروا هم المكيدون . لن يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون !

ودق الطبل ايذانا بالهجوم . فاندفع الجيش كله ، وتسلق الاسوار . فقابله المدافعون بوابل من السهام والرمل . فنشبت معركة طاحنة التحم فيها الفريقان بالسيوف والخناجر والمدى ، كل يستبسل فى القتال ، وكل ينشد معركة حاسمة فاصلة

وفقد المسلمون عددا كبيرا من رجالهم ، وكادت تخور قواهم وتفتر عزائمهم ، لولا أن تداركهم محمد قاسم ، وحمل فى المقدمة بنفسه . فالتهبت الحمية فى صدورهم . فاقتحموا الاسوار غير هيابين ، وهبط البعض منهم الى المدينة وهم يرددون : الله أكبر !

وكانت مالينى تقاتل هى الاخرى فى مقدمة جيشها ، محلولة الشعر ، مكشوفة الصدر ، مخضبة الوجه بالعرق والغبار ، وحولها رهط من أتباعها يذودون عنها ، ويتلقون الطعنات المسددة اليها ، ويسقطون الواحد بعد الآخر وهم يهتفون لها

ولمحها محمد قاسم . فخفق قلبه ، وثار حقده . فاتجه صوبها وضيق الخناق على أتباعها ، ثم حمل عليها هى حملة مفاجئة فكسر سيفها . فلم تضطرب مالينى ، واختطفت سيفا آخر من أقرب جندى اليها ، وكرت على محمد قاسم . فنازلها ونازلته ، وغالبها وغالبته . وما زال بها حتى أجهدها وتمكن منها ، ثم غافلها وأصابها بجرح بليغ فى ذراعها . فتقهقرت فجأة . فاطبق رجاله عليها ، ودفعوها الى المؤخرة دفعا ، فظلت تقاتل وهى تصرخ وتتوعد وتهدى

وتلفتت مالينى واذا بها تبصر أفواج المسلمين ، وقد

سحقوا القوات المدافعة وبدوها ، ينتشرون على الاسوار كالغمام ، ويملئون الجو كالعاصفة ، ويسدون فسحة الافق كالجوارح ، ويندفعون صوبها وهم يهللون . فانخلع قلبها ، وارتعدت فرائصها ، وخيل اليها وهى تنظر اليهم أنهم قد انقلبوا من بشر الى نسور ، وأنها هى الفتاة الباسلة المتكبرة العنيدة قد استحالت الى قبرة ، قبرة ضعيفة مسكينة خائرة تضرب فى اجواز الفضاء رعبا ، وتوشك أن تتمزق وتموت تحت أجنحة ومخالب النسور . فحاولت أن تقاوم ايضا . ولكن زمامها أفلت منها . فأرسلت من أعماق قلبها صيحة يأس مدوية ثم تصدعت وترنحت ، ووقعت على الارض فاقدة الصواب . .



وتم النصر للمسلمين فى ذلك اليوم المشهود . ودخل محمد قاسم قصر الحاكم ، وأقام فى حجرة متواضعة منه . ولم يشأ أن يذل مالينى ، فأفرد لها فى القصر جناحا خاصا ، وأمر بأن تعامل معاملة خليقة بمكانتها السامية

وكان محمد قاسم وقد أطربه النصر ، يريد أن يحرز نصرا آخر ينقع به غلة حبه وهواه ... كانت بسالة الفتاة قد سحرته ، وبطولتها الخارقة قد ضاعفت حبه وملكته . فوطن العزم على أن يثأر من مالينى بالحب لا بالموت ، وأن يجاهر بهذه الرغبة المشروعة فى اقرب فرصة وأمام الجميع

وفى ذات ليلة ، والقصر حافل بالناس ، أرسل محمد قاسم فى طلب مالينى . فمثلت أمامه شامخة الرأس ، مقطبة الجبهة ، متحدية النظرة ، موفورة العزة والترفع والكبرياء . فرحب بها وأكرم وفادتها ، ثم دعاها الى الجلوس ، وقال بغتة على مسمع من الحاضرين وقلبه يكاد يثب من صدره نشوة وظفرا

ـ هذه الفتاة الباسلة التى كان لى شرف مقاتلتها والتغلب عليها ، أصبحت بحق النصر ملكي . فأنا أريدها ، ولـكنى إكبرها عن أن تكون سرية لى . لقد أحببتها . أحببتهـا من صميم قلبى . فاذا رضيت الاسـلام دينـا ، تزوجت بها واتخذتها حليلة أمام الله وأمامكم !

وصمت لحظة وأردف :

ـ انا رجل لم يذق الخمر أبدا ، ولم يزاول الميسر قط ، ولم يقرب فى حياته امرأة . فأما وقد حالفنى النصر فمن حقي أن افوز بقسطى من الدنيا فى ظل المتعة الحلال التى أباحها الله . وانى لاقسم ... اقسم لكم ولها ... أقسم بالله العظيم ، أنى لو اقترنت بهذه الفتاة فلن أشرك فى حبهـا أية امرأة ، ولن أتخذ عليها أبدا زوجة ثانية ، وأن أظل وفيا لها ، أمينا على عهدها ، حتى النفس الاخير !

فضج الحاضرون بالهتاف . ولكن محمد قاسم قاطعهم والتفت الى مالينى وقال :

ـ اهتدى ... اهتدى يا بنية يشرح الاسـلام صدرك ، ويصبح القائد المظفر زوجا لك !

وحدق اليها ملهوفا وانتظر . فاتجهت اليهـا الاعين ، واشرأبت الاعناق ، وساد الصمت

وفجأة تقدمت مالينى وأجالتفى الحاضرين بصرها الصارم المتقد ، وقالت فى صوت ثابت قوى ، وفى لهجة عربية فصيحة بهت لها الجميع :

ـ لن أعتنق دينكم على يد محمد قاسم ، وان أتزوجه ! أنا بنت أمير وحفيدة ملك . واذا كان يجب أن أتزوج فالزوج الخليق بى هو الخليفة ، الخليفة نفسه لا محمـد قاسم ! فاحملونى الى خليفتكم ، فهو أحق بى من قائده . فاذا رقت فى عينه وطلبنى أسلمت على يده وتزوجته ! هذه رغبتى وهذا

واجبكم ! اما ان يحاول القائد ان يتخطى سيده ومولاه فتلك كبرياء اشبه ما تكون بالعصيان والتمرد !

فأجفل الحاضرون ووجموا . وشحب محمد قاسم وذهل ... وقبل ان يثوب الى رشده ويتكلم ، نهض الصالح بن نويرة وقال فى لهجة قاطعة .. وهو يصوب الى القائد نظرة حادة معنوية غريبة :

ــ اكبر ظنى أن الاميرة على حق !

فصاح محمد قاسم :

ــ ماذا تقول ؟

فأجاب ابن نويرة فى هدوء :

ــ ليس لك ان تجبرها على ما تكره !

فصرخ القائد :

ــ ولكنها وقعت أسيرة فى قبضتى !

فقال الصالح :

ــ انها أعظم شخصية فى المدينة ، وأمير المؤمنين هو الذى فى مقدوره أن يهبك اياها !

فسرت همهمة طويلة بين الحاضرين ، وهتف أحدهم :

ــ هو ذاك . للخليفة وحده أن يفصل فى امرها !

فتشجع آخر وقال :

ــ كان أجدر بمحمد قاسم أن يبعث بها من تلقاء نفسه الى أمير المؤمنين !

وصاح ثالث :

ــ يجب ، يجب أن ترسل الى دمشق حالا !

فاسودت الدنيا فى عين محمد قاسم ، وأحس كأن قلبه يوشك أن ينتزع منه . فنظر الى الحاضرين وخيل اليه أنه أشبه بمتهم امام قضاته . ثم نظر الى مالينى ، فألفاها صامتة جامدة كأنها الجلاد . فتاه فكره ، واختبل عقله ، وهم بأن

يفرض ارادته على الجميع فرضا . ولكن اقحام شخص الخليفة في الامر اشاع في نفسه الحرج والاضطراب . فتمالك اعصابه جهده ، وقال وهو يحاول ما استطاع ان يخنق لوعته :

ـ سأنزل على حكم أمير المؤمنين مختارا ! سأكتب اليه ! انا مطمئن لعدله ، واثق في نزاهته . فلترحل الفتاة منذ الغد اذن ! لتذهب الى دمشق وليكن قضاء أمير المؤمنين هو الفاصل!

فتقدمت ماليني مرة ثانية وقالت وهي تومىء بأصبعها الى الصالح بن نويرة :

ـ آذنكم ياسادة ان يرافقني في رحلتي هذا الرجل الشهم النبيل !

فصاح محمد قاسم :

ـ لا أخيب لك سؤلا ايتها الاميرة ! رافقها يا ابن نويرة واحرص عليها فهي أمانة في عنقك !

ونهض القائد متجلدا ، واستأذن الحاضرين وهو يرتجف . ثم دخل حجرته وشرع يكتب لأمير المؤمنين

ولما اتم رسالته ، والفى نفسه وحيدا ، تجاه قلقه ، وحيدا تجاه عجزه ، وحيدا تجاه قسوة المراة التي يحبها ، والتي يعلم علم اليقين انها تحبه ، ويعلم في الوقت ذاته علم اليقين ايضا ان الثأر لبلادها أشهى لديها واثمن الف مرة من حبها ، لما أحس بكل هذه العواطف تجيش في صدره ، صغر في عينه المجد وصغرت في عينه الدنيا . فاستغفر ربه ملهوفا وتمتم :

ـ لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير

وتصلبت عضلات وجهه واردف :

ـ قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

ولكن حسرته عادت فحطت عليه واستبدت به . ولاول

مرة ، لاول مرة فى حياته الزاهدة الموهوبة المستعلية ، طاطا راسه الشامخ المهيب الجميل ، وطفرت من عينه دمعة ..



وخرجت دمشق بأسرها لتشهد الاميرة الهندية المهزومة فغصت الشوارع بالجماهير ، وامتلأت الاسطح بالناس ، وعلا الهتاف بحياة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وحياة قائده المظفر محمد قاسم

وكانت مالينى جاثمة على ظهر حصان ابيض ، يحيط بها الصالح بن نويرة وبعض جنوده . وكنت لا تأبه الجماهير ولا تنظر اليها ، بل تتأرجح على ظهر الجواد ثابتة وممتزة ، طاوية نفسها على فكرها ، مسددة بصرها الى قلبها ، والى ذلك الطيف البغيض الحبيب الذى كان لا يلبث ان يلوح لها حتى تحنق فتقصيه ، ثم تنتفض فتدنيه ، ثم تستهول جرأته وسلطانه فتطرده عنها ، متوعدة اياه بأقسى وأفتك ما فى طبيعة المراة من غرائز الحقد ، ومن ضروب الختل والكيد والانتقام والتشفى .

وتنبهت بغتة فأثارها صياح الناس ، وضاعف تحقيرهم من حقدها ، وشدد تعييرهم من عزيمتها . فعولت ان تبذل قصارى الجهد فى حبك فكرتها ، وتنسيق انتقامها ، وتنفيذ الخطة المروعة التى نبتت فى راسها منذ اللحظة التى احتقرها فيها محمد قاسم ، وطردها من خيمته وهى عارية !

ولما بلغوا قصر الخليفة ترجلوا ، وظل الجنود بالباب ، ودخل الصالح بن نويرة تتبعه مالينى

وكان الوليد متربعا على اريكة عالية وحوله فريق من وزرائه وبعض رجال حاشيته

وكان رجلا واسع الحدقتين ، عريض المنكبين ، وثيق التركيب ، حاد البصر فى ذكاء ، جهير الصوت فى عذوبة ، متزن الحركة والاشارة فى عزة اصيلة وفى جلال متواضع بسيط

فما أن دخلت مالينى ، حتى أعتدل فى جلسته ، ونظر اليها واجفل . . .

أعجب بجمالها الفتان ، وادرك على الفور انها قوية وذكية . فرحب بها ودعاها الى الجلوس . فأسرعت مالينى ، وقبلت الأرض بين يديه ، وظلت واقفة

وتقدم الصالح وحيـــا مولاه ثم ناوله كتاب محمد قاسم ففضه وقرأه ، ثم طواه ، وجعل يتأمل الفتاة ويفكر . .

وبعد لحظة رفع بصره الحاد ، وصوبه اليها ، وقال بصوته العذب الجهير وهو يلوح بيده فى أتزان ملؤه الهيبة :

ـ يدهشنى منك ايتها الاميرة جحودك الصـــارخ وتمردك العجيب !. . . لقد وقعت اسيرة فى قبضة القائد المنتصر ، فبدل ان يذلك ويتسراك ، عرض عليك الزواج . فماذا تطلبين؟ الا رحم الله أمرءا عرف قدر نفسه وقاتل الله الكبر والمتكبرين!

فحاولت مالينى أن تتكلم ولكنه قاطعها فى سخرية وقال :

ـ الاميرة المهزومة تريد ان تحرز النصر المبين بأن تصبح زوجة لخليفة المسلمين ! اليس هذا هو مرادك ؟ لشد ما انت مغرورة يا فتاة ! ولكننا يا بنيتى لا نأخذ ماليس لنا ، ولا نعتدى على حق غيرنا ، ولا نظلم من جاهد فى سبيل الله معنا ! حكمى العقل ايتها الاميرة وتزوجى القائد !

فتقـدمت مالينى ، وثبتت بصرها فى الخليفة ، وقالت فى هدوء وعزم :

ـ لن أتزوج محمد قاسم ولو قتلتنى !؟ . . .

واردفت صارخة :

ـ لن أتزوج برجل احل لنفسه ان يغتصبنى ويلوثنى ! . .

فأبرقت عينا الوليد وقال :

ـ ماذا أسمع ؟ تتهم قاسما وبجسارة مستكبـرة ولسـان عربى قويم ؟! انها فى الحق لفتاة فذة . ولكن أمثله يفعل هذا؟!

انى الطاقة تصور هذا ؟

فاستطردت مالينى وهى تهدر :

ــ انما جئت اليك يا مولاى لاطرح عند قدميك شكايتى . وحاشاى ان افكر لحظة فى التطلع الى الزواج من أمير المؤمنين وهذا الرجس فى دمى ! ولكنى لوحت بهذه الغاية لافلت من قاسم وانطلق اليك . اقرار العدل هو كل ما كنت ابغى . لقد اوفدنى قومى رسولا الى محمد قاسم . فاعتدى محمد قاسم على ، وانتهك حرمتى ، واغتصبنى اغتصابا شائنا منكرا ، وانا لا حول ولا قوة لى ! واذا كنت فى شك من كلامى ، فسل ... سل هذا الرجل الطيب الشهم النبيل !

فالتفت الوليد الى الصالح بن نويرة وهتف :

فقطب الصالح جبينه وقال :

ــ قل الحق ! ... قل الحق والا أهلكتك !

ــ لن تهلكنى غير ساعتى . وما انا بمفتر كى أخاف . لقد رايت الاميرة بعينى راسى ! رايتها تبكى ! رايتها تخرج من خيمة القائد نصف عارية وشعرها محلول وثوبها ممزق ! ولقد خفت ان انا تكلمت ان يوعز محمد قاسم بقتلى ، فآثرت ان أدفع بالفتاة اليك كى تفصل فى أمرها بنفسك !

فاستشاط الخليفة غضبا وصاح :

ــ الم افرض على القواد احترام شخصيات الرسل ، الم اوص الجيش كله بالترفق بالنســاء ، الم انذر بأن كل من يغتصب ملكة او اميرة جزاؤه الموت ؟ ذلك كان وما يزال أمرى ان واجبنا الاول هو صيانة كرامة الملوك والامراء والاميرات الذين يقعون فى أيدينا ، وارشــادهم الى الطريق الســوى بالحسنى ، حتى اذا ما اهتدوا وآمنوا ، آخيناهم هم وشعوبهم ، واستطردنا الجهاد فى سبيل الله سويا . فالقانون يجب أن يحترم ، والعدل يجب أن يأخذ مجراه . أيظن محمد قاسم ان

انتصاره يشفع له فى استباحة أميرة كانت فوق ذلك رسول قومها اليه ؟

كان يجب أن يكون هو المثل والقدوة . على انى لن احكم عليه قبل ان أسمع دفاعه . وجل ما اتمنى ان يكون دفاعه من القوة والصدق بحيث ينقذه ! فاعلنوه بالتهمة الموجهة اليه . وارسلوا فى طلبه حالا . وما دام هو قد أدى مهمته ، فسيحل محله الحسين بن عبيدة منذ الغد فى قيادة الجيش !

وتحول الى الفتاة وقال :

ـ واما انت ايتها الاميرة فاطمئنى ... سنقتص لك من المعتدى اذا كان حقا مذنبا ... اذهبى ... اذهبى الآن الى دار النساء ، والزمى خباءك ، وانتظرى أوامرى ...

فلمعت عينا مالينى ، واحتواها فرح غامر شرير . بيد انها احست فى اللحظة نفسها ان شيئا اقوى منها ، واقوى من حقدها ، واقوى من تعصبها لقومها ، واقوى من انتقامها المنشود ، يزجرها ، ويبكتها ، ويستفظع فعلتها ، ويهم بان يوقظ فى قلبها شعور الندم وعاطفة الرحمة . فمشت متثاقلة وفكرت . فكرت فى النكوص . ولكنها ابت ان تضعف ، وابت ان تنسى ، وابت ان ترحم . ولكى تثبت امام عزمها ، وتمعن فى طلب انتقامها ، وتخنق ذلك الصوت المضطرم المذيب المنبعث من صميم انوثتها واحشائها ، تمثلت على الفور هزيمة أهلها ، وتمثلت النسور الجارحة وهى تحوم حولها وتطاردها . فتقبض محياها ، وتشنجت عضلاتها ، وخرجت منصوبة القامة ، ساكتة ، غير حافلة ! ...



ووقع النبأ على محمد قاسم وقع الصاعقة . لم يستطع أن يتصور أن الحقد يمكن أن يبلغ بمالينى هذا المبلغ . هاله تدبيرها وافتراؤها . هاله اقدامها وعدم اكتراثها . هالته قسوتها ووحشيتها وجبروتها ، وتلك الارادة المخبولة المتحكمة

فيها والتى توشك أن تقضى بها على رجل تحبه ويحبها !

والهبه ومزقه ان مالينى لم تفكر فى قتل جسده ، بل فكرت فى تدنيس روحه ، وتلويث شرفه ، وطعنه فى خلقه وعفته ونزاهة جهاده امام الخليفة نفسه ! وكان يحبها فى جنون ويرجو ان يهبه الخليفة اياها ، فتتغلب فى قلبها عاطفة الحب على شهوة الانتقام ، ثم يقترن بها ويغدق عليها ما استطاع ويسعدها . فلما تلقى هذه الطعنة ، أيقن من تحطيم حبه وخيبة هواه ، فباتت نفسه نهبامقسما بين اليأس والثورة ، واللوعة والسخط ، والكمد والكبرياء . ففكر هو الآخر فى الثأر لنفسه . فكر فى الذود عن مكانته ، والدفاع عن شرفه ، والمطالبة باستخدام شتى الوسائل التى تظهر براءته وتفضح الفتاة المفترية الحاقدة ، ولكنه فكر فى اللحظة نفسها أن الحقيقة لن ترحمها ، وان كذبها سيرديها ، وان الخليفة لابدأن يامر بقتلها . فاقشعر بدنه ، وهاله أن يحبها ثم يكون هو قاتلها . فاستعر عشقه ، واتقدت شفقته . فأظلم الكون فى عينه ، وغشت الحيرة عقله ، وانقده التخبط والعجز واليأس كل امل

وحاول أعوانه واصدقاؤه رده الى ما عرف عنه من جلد وصبر وقوة شكيمة وصدق كفاح . ولكنه كان قد فقد مع الامل حب الحياة ، وفقد مع حب الحياة كل رغبة فى انقاذ نفسه بتضحية مالينى . فبرم بالمجتمع وسئم الناس ، وتفرد واعتزل واستوحش ، ثم عف عن الطعام ، وعف عن الشراب ، وعف عن الكلام ، واتخذ من الصمت رفيقا ، ومن الصوم منقذا ، ومن الصلاة مجيرا ، ومن التهالك على الزهد فى متع الدنيا لذة محمومة مفتونة يستعجل بها ارادة الله وحكم القدر

واضواه الصوم ، وبراه الضعف ، ونكره الهزال . فما ان قطع رحلته وبلغ أبواب دمشق حتى كان قد استحال الى شبه هيكل عظمى تتردد فيه الآونة بعد الاخرى أنفاس طيف لا أنفاس انسان !

وما أن علم الوليد بوصوله حتى استدعاه اليه ، وبعث فى طلب مالينى . فأقبلت الاميرة الهندية راسخة العزم ، ثبتة الجنان ، واتخذت مجلسها عن يمين الصالح بن نويرة ، وتهيأ الخليفة ووزراؤه للبدء فى المحاكمة

ودخل محمد قاسم شاحب اللون ، منطفىء العينين ، غائر الوجنتين ، محدودب الظهر . وتقدم صوب الخليفة وهو يجر نفسه جرا ، ثم انحنى امامه وقبل يده ، وتساقط من فرط الاعياء على مقعد ولم يتكلم

ورماه الخليفة بنظرة ووجم . وحدق فيه الصالح بن نويرة ودهش . وشخص اليه الوزراء فبهتوا ولم يجرءوا حتى على التلامح والهمس

وقال الخليفة وهو يحاول ان يوازن فى نفسه بين مبدأ العدل وشعور الرحمة :

ـ والله ما تمنينا يامحمد قاسم أكثرمن ان نحتفل بمقدمك، ونقدر لك حسن بلائك ، ونبرىء ذمتنا نحوك ، ونخرج على راس البلاد بأسرها لاستقبالك وتحيتك ولكن يبدو أيها القائد انك اطعت غيك ، وركبت سجيحة راسك ، وعبثت فى صلف بحرمة الامر الصادر اليك من مولاك ! ماذا ؟ .. اغرك النصر فحسبت انه من عندك ؟ الا ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ! فانهض ! انهض ودافع عن نفسك ، فلا احب الينا من أن نسمعك ، ونترفق بك ، ونلتمس لك الرحمة فى حدود العدل ! ... تكلم ...

فتحرك محمد قاسم ، وحاول ان يقف ، ولكنه أرسل زفرة مخنوقة وتهالك على نفسه مرة ثانية ولم يتكلم

وكانت مالينى تتطلع اليه وهى ذاهلة ... لم تعرفه . لم تصدق انه هو . لم تستطع ان تتصور أن هذا الطيف هو البطل الذى اذلها ، ودوخ أهلها ، واخضع بلادها . فتفرست

فيه ، واستمرات متعة الانتقام وهى نشوى ، ومع ذلك فقد اضطربت ، اضطربت وبهتت ، واحست انهـا تستمرىء لذة عاتية أخرى ، هى لذة الحنان والرحمة ...

وتفطر قلبها وهى تقاوم ... وهفت نفسها الى عدوها وهى تكافح ... وتمنت من صميم كيانها لو أن قاسم يلتفت اليها او يتجه نحوها ولو بنظرة واحدة ، كى تنقذه من عاره ، وتنقذ قلبها من شهوة الثأر ولو هلكت . ولكن محمد قاسم كان مطرقا كان متداعيا ومنسحقا كان غائبا عن وجوده وغائبا عن الدنيا

وعيل صبر الخليفة ، فأهاب بمالينى ان تتكلم . فعـادت تقص قصتها الملفقـة وهى تختلج . وعاد الصالح بن نويرة يشهد شهادته الساذجة وهو مضطرب . وحمل الوليد على القائد فواجهه بالتهمة ، ثم صمت وانتظر دفاعه

ورفرف الصمت على القائد أشبه بجناح طـائر مذبوح . فاتجهت الابصار نحو محمد قاسم ، وحبس الجميع انفاسهم وتلهفوا ...

وفجاة ، تململ القائد ، ورفع راسه فى اتجاه مالينى ، ونظر اليها .. القى عليها نظرة لم تر قط مثلها فى عين انسان . نظرة حزينة وعميقة ، معـاتبة وآسـفة ، مفتونة وعابدة ، قريرة وممزقة . ثم أشاح بوجهه وارسل نفسا عميقا ، وترك راسه المترنح الكليل يسقط فى سكون على صدره المقوس العارى . وعندئذ ، عندئذ فقط فقدت مالينى حكمها الجبار على نفسها . فانفجر حبها ، وانفجر ندمها ، وانفجرت رحمتها ، واندفعت نحو محمد قاسم ، وطفقت تهزه هزا عنيفا وهى تصيح بأعلى صوتها :

ـ لا تصدقوا ! ... لا تصدقوا ! ...

وهمت بأن تستطرد وتعترف وتستفيض، ولكنها تحسست حبيبها وهى مبهوتة ، وتأملته وهى مذعورة ، وجذبته اليهـا

وهى تائهة . فألفته يبترد برودة مروعة تشبه الصقيع . فهزته ايضا . فارتمى عليها ، وسقط بجمعه على صدرها ، ثم تملص من بين ذراعيها فجأة وانهار على الارض جثة هامدة

فجن جنون مالينى وصرخت :

ـ مات محمد قاسم ! ... مات حبيبى ! ...

فأجفل الوليد ونهض ، واسرع الجميع فتفحصوا الجثة ، ثم رفعوا أكفهم الى السماء وغمغموا :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ! ...

وقبل أن يثوب أحد منهم الى رشده ، وقبل ان ينطق الخليفة بكلمة ، وقبل أن تحمل الجثة الى الخارج ، تقدمت مالينى وأخذت الجثة بين ذراعيها ، وصاحت فى خبال ،والدمع يمزق صدرها ويكاد يخنقها :

ـ لقد خدعتكم ! ... خدعتكم جميعا ! ... هذا الرجل لم يغتصبنى ! ... لم يمسسنى ! ... عف عنى فى حين اننى ذهبت الى خيمته عارية ! لقد احببته ! عبدته ... ولكنه كان خصمى ! كان هو الرجل الذى هزم بلادى . فكبر على ان احبه ، وكبر على أن يصبح سيدا على نفسى وجسمى بعد ان اصبح سيدا على وطنى فقاومت عاطفتى جهدى ، واردت بهذه الفرية أن أثأر منه وأثأر من حبى ! أجل . أردت أن أثأر منه أما هو فلم يشأ ان يصيبنى ... لم يشأ أن يجهر بالحقيقة خشية ان يكون هو السبب فى قتلى ! وهكذا قتلته أنا ... قتلته بيدى !... قتلته بكيدي وحقدى !... فاقتلوني !... اقتلونى ، فحياتى كلها اصبحت بعد قاسم هباء !

فحدق اليها الوليد بن عبد الملك تحديقا هائلا ، تحديقا مستنكرا مستهولا عازما ، ثم اشار الى السياف وصرخ :

ـ اضرب عنق هذه الفتاة !

فاشرق محيا مالينى وهتفت :

ـ الموت ؟ ... مرحبا بالموت ! ... ولكن رويدكم ! ... رويدكم حتى أقول كلمة واحدة قبل ان أموت !

وجمعت انفاسها واستطردت :

ـ لقد فرقت الاقدار فى الجهاد والدين بيني وبين محمد قاسم ... ولكنى الآن والموت تجاهى ، لا اريد أن يفرق بيننا فى غد شيء ! انه زوجي وأنا امرأته ومن واجبى أن اتبعه ! سأعتنق دينه ! دينه الذى علمه الحب والنبل والشهامة والتضحية . دينه الذى تفوق به وسما ؟ ... سأعتنقه عن ايمان مطلق وعقيدة راسخة ، عسى ان يغفر لى ربى ، ويجمع بيني وبين من أحب فى جنته الخالدة !

ورفعت عينيها وغمغمت !

ـ أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله !

ثم مدت رأسها الى السياف وصاحت :

ـ اضرب يا رجل !

فهوى السيف على عنقها ، والصالح بن نويرة ينظر اليها نظرة ملؤها الغبطة والشماتة والكراهية .

واذ ذاك ، وقبل أن يتقدم الغلمان لنقل الجثتين ، وقف الوليد بن عبد الملك وقال فى صوت هادىء جهير :

ـ يا قوم ، هذا يوم مجموع له الناس ، وهذا يوم مشهود . من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون . لقد خسرنا بوفاة محمد قاسم قائدا من خيرة قوادنا . كان بطلا فى جهاده ، وبطلا فى حبه ، وبطلا فى تضحيته ، وبطلا فى رياضة نفسه على التعفف المطلق عن المرأة التى يهواها ، انقاذا لها من الموت ولو على حساب حياته . ففيه يصدق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعف فمات ، مات شهيدا ! » ان موته لم يذهب سدى . لقد كسب الاسلام روحا ، وهذه الروح قد

يشفع لها عند ربها . انها ندمت وتابت وعرفت فى لحظتهـا الاخيرة اين هو الهدى . اما صورة هـذه الروح ، اما الاميرة الهندية مالينى ،فقد كانت برغم دهائها ومكرها بطلةفى وطنيتها، وبطلة فى اقدامها على الموت توكيدا لحبها وتكفيرا عن ذنبها . فليحملا اذن جنبا الى جنب ، وليدفنا فى قبرين متجاورين ، وليجزل الله لهما الرحمة والمغفرة !

ولوح بيده ، فتقدم الغلمـان والقوا على كل من الجثتين غطاء أبيض ثم حملوهما الى الخارج فى صمت وسكون

وفى صباح اليوم التالى ، دقت الطبول ، وتدفقت الجماهير على قصر الخليفة ، وخرج الوليد فى موكبه يودع الحسين بن عبيدة قبل أن يسافر ليحل محل البطل الشهيد محمد قاسم ويستطرد جهادا مقدسا طوى الهند والعـالم تحت اجنحة نسور المسلمين



عبقرية امرأة

« وقعت حوادث هذه القصة في عهد احمس . وكان الهكسوس، وهم قبائل أسيوية همجية ، قد اغتصبوا أرض مصر ، وظلوا يعيشون فيها ويسومون أهلها الاستبداد والظلم . فلما ظهر في أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد فرعون أحمس ، قاتلهم وانتصر عليهم وردفلولهم الى آسيا ، ثم اقام امبراطورية مصرية صميمة هي امبراطورية طيبة الثانية »

كان الظلام حالكا ، واسوار مدينة ممفيس تبدو كأنها طوق شاهق مروع ، ينبثق من جوف الظلمة الساكنة ، ويختلط بها ، ويلتف بالمدينة ويفصلها عن عالم الاحياء

واستأنست « امنريس » بالصمت والظلمة واطمأنت . فتسللت الى سطح القصر المجاور للاسوار ، وانبطحت على الارض وغمغمت :

ــ رحيو . . .

فتظاهر الرجل بأنه لم يسمع ، واتأدفترة ثم دنا منها . فهمست :

ــ هل من جديد ؟ . . .

فأجاب :

ــ الليلة . . . سيهجم فرعون الليلة بجيش جرار . وأنت هل وفقت في مسعاك ؟

فقالت :

ــ سأحاول . . . وما دمت انت الليلة في نوبة الحراسة ، فسأبذل جهدي كي أوفق . واذا وفقت فسأبعث اليك بجاريتي . . . ابتعد . . . كن على حذر . . . عم مساء يارحيو

وزحفت امنريس في هدوء ، وهبطت سلم القصر ، ودخلت البهو الكبير ، وجلست . جلست القرفصاء على الارض ،

وطفقت تحدق فى قدر كبيرة تشتعل من تحتهـا النار . ثم لوحت بذراعيها فوق القدر ، وتمتمت عبارات غريبة غامضة ، وعيناها السوداوان الواسعتان تلمعان ...

وكانت جاريتها المخلصة « تامينا » ترقب حركاتها ،وقلبها يخفق ، وصدرها يلهث ، وبدنها يرتعش . فلمـا صمتت امنريس ، وكفت ذراعاها عن الحـــركة ، ونهضت ، تطلعت اليها الجارية مستفسرة . فقطبت المرأة حاجبيها ، ثم اطرقت لحظة ، ثم رفعت راسها الشامخ المكلل بشعر أســود مجعد جميل ، ثم هتفت :

ـ انى أرى فى النار كل شىء يا تامينـا ... أرى فرعون نفسه ... أرى « احمس » العظيم مقبلا من بلاد الصعيد ، من مدينة طيبة ، يتقـدم صـفوف جيشـنا ، وينقض على الهكسوس ، على ملوك الرعاة الذين اغتصبوا نصف بلادنا ، ويقهـرهم ... نعم يقهرهم ، ويهدد هذه المدينة ، مدينـة ممفيس المصرية ، التى اتخذوها عاصمة لهم ! ... ثم أرى نفسى ... أنا ... أنا ... المرأة الضعيفة الخاملة ، أتسلل من فراشى ، واغافل قائد جيش ملوك الرعاة « سالتيس » ، وانطلق فى الظـلام الدامس ، حاملة الى فرعون أحمس مفتاح أسوار المدينة !

وصمتت امنريس لحظة ثم صرخت :

ـ سيدخل فرعون المدينة وسينتصر .. سيطرد الغاصب وينقذنى ... سيوحد مصر كلها بفضل شجاعته وحيلتى ! لابد أن أسرق مفتاح اسوار المدينة ، ولابد أن اثأر من قائد الرعاة سالتيس الذى أذل بلادى ، وقتل أمى وابى ، واقتادنى الى هنا اسيرة ، واستباح عرضى ، وألقى بى فى غيابة هذا القصر سجينة ، لا تبصر عينى ضوء النور ، ولا تلفح بدنى اشـعة الشمس ! انه يحبنى وأنا أكرهه ! أكرهه بعدد ما يحمل قلبى

فى حياتى كلها من خفقات ! سأثأر منه ، وانقـذ ايضا رفاقى الاسرى ... رفاقى الاسرى المصريين الذين امر السفاح بقتلهم غدا بعد عرضهم أمام الشعب فى الساحة الكبرى ! سأنقذهم، ثم اتصل بفرعون أحمس ... اتصل به عن طريق جاسوسنا رحيو الذى استطاع ان يكسب ثقة الهكسوس ، ويصبح من حراس اسوار المدينة ... ثم أضلل الجميع واخدعهم ،وابعث الى فرعون بمفتاح الاسوار ! الليلة ! سيكون جيش فرعون هنا الليلة ، وسيتم الليلة كل شيء ياتامينا !... هذا ما أراه الآن فى النار !

فقالت الفتاة وهى تنتفض :

ــ اعرف يا مولاتى انك نشأت فى طيبة بين جدران المعابد، وانك أمرأة عبقرية الذكاء ، تلقيت من الكهنة جميع ضروب السحر ، وانك الى جانب حسنك الرائع الفتان ؛ إمهر واحذق ساحرة فى مصر كلها . ولكن الا يمكن ان يخدعك المجهول ؟ الا يمكن ان يغدر بك القدر ؟ الا يمكن ان تضللك النار ؟

فغمغمت امنريس :

ــ النار لا تكذب ! ومتى قرات عليها تعاويذى ، واستعنت فى تلاوتى بوحى آمون سيدى ونصيرى ، رايت فيها المستقبل رأى العين يا تامينا ! ومع ذلك فالنار وحدها لا تكفى . لابد من عقل وارادة وعبقرية يا تامينا . وأنا واثقة من نفسى ، ومن القوة الذهنية والروحية الخارقة التى أودعها آمون فى كيانى ، والتى أحس بها تجيش وتصطخب فى كل نقطة من دمى !

وتقبضت تقاطيع وجهها فجأة وصرخت :

ــ لماذا ؟ لماذا أحبنى القائد السفاح سالتيس ؟ ولماذا اقتادنى إلى هنا ؟ انه لم يحببنى لجمالى فقط ، بل أحبنى لفنى أيضا ... أحبنى لانى قرأت فى النار حظه ، وقلت له انه سيقهر فرعون ، وان كنت قد أخفيت عنه أنه سيهزم فى النهاية ويتحطم!

فاياك ان ترتابى فى قدرتى يا تامينا ، فهى من عند الآلهة ، والآلهة لا يمكن ان تخطىء أو تنسى أو تخون !!

فصاحت الفتاة بالرغم منها :

ـ اذن فافتحى لى مغاليق صدرك يا مولاتى وتكلمى .. ماهى خطتك .. ماهو تدبيرك وكيف .. كيف سيمكنك التغلب على العقائد ، وانقاذ الاسرى ، ومعاونة فرعون ، وحمل مفتاح أسوار المدينة اليه ؟

فندت عن امنريس ضحكة مخنوقة وقالت :

ـ هذا سرى ... وكل ما أستطيع ان أفضى به الآن اليك هوانى اسيرة مصرية فى بلد مصرى مستباح ، وان مصريتى تشدد عزمى ، وتلهب فنى ، وتفتق حيلتى ، وتضاعف شعور الكراهية والبغض الذى أحسه نحو أعداء بلادى ! فأنت مصرية مثلى ، وانت أيضا أسيرة ، فاقتدى بى ، واكتفى الآن بما سمعت ، وتجلدى واصبرى ...

وعادت امنريس الى القدر الكبيرة ، وانحنت عليها ،ومضت تتأمل النار ، صامتة جامدة ، وعيناها السوداوان المكحلتان ترقبان فى أبتسامة عريضة ضوء اللهب المتصاعد الذى كان قد اخذ يفتر شيئا فشيئا ، ويوشك ان يستحيل الى جذوة ملتمعة . وفجاة ، وبينا هى منهمكة فى التأمل والتفكير ، طرقت مسمعها جلبة مشفوعة بصوت تعرفه . فاستدارت لفورها ، ونصبت قامتها، وأهابت بجاريتها وهى تزفر :

ـ اسرعى بالخروج ! الى مخدعك حالا ! البثى هناك وانتظرى أوامرى !

فاتجهت الفتاة صوب أحد الابواب الجانبية ، وفتحته ، ثم مرقت منه مروق السهم ، واوصدته خلفها . ولم تكد تختفى حتى فتح باب الصدر ودخل منه قائد جيش ملوك الرعاة سالتيس

وكان القائد رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، ضيق العينين ، غليظ الشفتين ، أقنى الانف ، ناتىء الذقن ، دميما دمامة يضاعف تأثيرها المنفر طول قامته ، وتكتل عضلاته ، وترنح رأسه الضخم ،وتهدل شعره الاسود المشوش الغزير

وارتمى القائد من فوره على القدر الكبيرة ، وقال وهو يجذب أمنريس من ذراعها ويلهث :

ـ الم تسألى ... الم تسألى الناربعد عن مصيرنا ؟ اقرئى اقرئى عليها كل ماوسعه علمك الجامع وسحرك الناجع من رقى وتعاويذ ، واكشفى لنا النقاب عن مستقبلنا ! ان جيوش فرعون تتقدم صوبنا ، وأكبر ظنىان المعركة الفاصلة ستنشب غدا .. فخاطبى النار وطمئنينى .. ومهما قال لك اللهب الاحمر المقدس ، فيجب أن تصارحينى بهالساعة والا أهلكتك دون رحمة !

فصاحت امنريس وهى تعانقه وتطبع على فمه المختلج قبلة مشغوفة ظمأى :

ـ ستنتصر ياسالتيس ! هذا مارأيته فى النار منذ ساعة وانا ارقبها ! انظر ... الا ترى فى هذه الجذوة الخامدة صورة فرعون وهو منسحق تحت حوافر جوادك ، يتطلع اليك مبتهلا ويستصرخك الرحمة ؟ الاترى ابنك الوحيد « جالى » وهو يضمك الى صدره ويبكى بكاء الفرح والذهول والاعجاب ولكنك لا ترى شيئا ... لا يمكنك أن ترى شيئا ... أنا وحدى التى أرى ! ومادمت قد رأيت ، فمن المحتم أن اكون مبصرة وصادقة ، لانى انما انظر بعين سيدى ، بعين آمون العظيم لا بعينى !

فقبلها الرجل فى لهفة مخبولة وقال وهو يجلس :

ـ الآن فقط هدأت نفسى واسترحت . تعالى ... تعالى وأجلسي بجوارى ... ماشككت أبدا فى نبوءة تفيض بها

شفتاك ،ايتها الساحرة المصرية العبقرية القادرة على مغالبة دورة الافلاك ! أنت ، أنت ياأمنريس حظى الباسم ، ونجمى اللامع ، وحبى الزاهر ، وملاذى بعد ولدى الوحيد وملجئى . كنت على وشك أن أتزوج بعدان فقدت أمراتى . ولكنى منذ عرفتك آليت على نفسى أن أنقطع لعبادتك ، ولا أشرك فى هذه العبادة انسانا غير ولدى ! ولو ان شرائعنا كانت تبيح لنا نحن القواد الزواج بالاجنبيات ، ما ترددت لحظة واحدة فى اتخاذك حليلة لى ! فانا احبك ، احبك يأمنريس الى حد الجنون ، فقولى لى انك انت ايضا تحبيننى والا قتلتك !

وزايلته رقته ، وانقلب فى مثل لمح الطرف من انسان الى وحش . فلم تضطرب أمنريس ،بل ضمته الى صدرها ، وهدهدته كطفل ، وقالت له وهى تلاطفه وتداعبه :

ـ انا أحبك يا سالتيس اكثر من عينى وقلبى ، وجسمى الباقى وروحى الخالدة . ولكن اشفق على . ارحمنى . لا تقتل الاسرى المصريين رفاقى واخوتى . نحن لا نقتل اسراكم فلماذا لا تعاملوننا بالمثل ، وتحترمون شخصية الاسير الاعزل بوصفه انسانا ؟

فاومضت عينا القائد ، وعاودته وحشيته ، وقال :

ـ انت اليوم منا يا امنريس ، ولا حق لك فى التحدث باسم المصريين والا كنت خارجة علينا ! كل اسير من جند فرعون هو فريسة لنا . وما دام قد رفع السلاح فى وجهنا ، فموته اصبح حقا مشروعا لنا . لن ارحم الاسرى . سألغ صباح الغد فى دمهم كما تلغ الضوارى ، وسآمر بقتلهم جميعا قبل بدء المعركة . فاياك ، اياك ان تشفعى لهم والا تنكرت لحبى وغامرت بحياتك !

فصاحت وهى تصطنع التحول والقسوة :

ـ اذن ليقتلوا ولتعش أنت ! لتعش انت لى ، فحبك هو وطنى وعشيرتى !

وانكمشت في عمق حضنه ، واردفت مبتهلة وهى تتشبث به:

— احرص ... احرص على حياتك جهدك .. ثم .. ثم احرص على الوديعة التى ائتمنك عليها قومك .. احرص على مفتاح أسوار المدينة ، والا فقد يفطن احد جواسيس العدو الى المكان الذى أخفيته فيه ، فيغافلك وانت فى حومة القتال ويسرق مفتاح الاسوار ، ويحمله الى فرعون احمس !

ومالت الى القائد فى دل ناعس فتان ، وقبلته قبلة هائمة طويلة ، ثم غمغمت وهى تتطلع اليه :

— أين ... أين أخفيت المفتاح ؟ اليس من الافضل ان تخفيه عندى انا .. انا التى لا يرانى ولا يعرفنى ولا يمكن ان يصل الى أى جاسوس !

فرمقها القائد بنظرة جانبية فاحصة ، وقال فى صوت كاسر وهو يشيح بوجهه :

— المفتاح فى حرز منيع . ومن المحال ، من المحال ان تعثر عليه يد انسان !

على انى لن استخدمه ابدا .. ابدا ... وحتى لو قـــدر لفرعون ان ينتصر ويهزم جيشى ، فلن أفتح له أسوار المدينة وهكذا أضطر الى محاصرتها حتى أهلك أمام عينيه أهلهـــا المصريين جميعا !

فهتفت امنريس :

— يالك من بطل . بطل راض نفسه على المجالدة والكفاح فلم تعد تعرف الرحمة الى قلبه سبيـــلا . انى معجبة بك وتواقة اليك ...

ومشت اليه وهى تتثنى فدفعها عنه فى رفق ملؤه الزهو وقال :

— سأكون هنا بعد ساعة أو أقل . ميقات ما أصدر أوامر عسكرية جديدة يقتضيها هجوم فرعون المرتقب ثم أعود ...

أريد أن أحظى بك فترة مليئة قبل أن أخوض غمار هذه الحرب الفاصلة . فالى الملتقى ياحبيبتي ، وصبرا

فتمتمت أمنريس :

ـ صبرا ... صبرا .. والى الملتقى يا حبيبى ...

وقبلها فى شغف وانصرف فلوحت له بذراعهـــا ، وظلت تتبعه النظر وهى تبتسم . ثم مضت واغلقت باب الصـــدر ثم اسرعت الى القدر الكبيرة ، واشعلت فيها النار . ثم ألقت فى القدر سائلا اخضر كثيــفا ، اتبعته برشاش اصفر ناعم صنعته من نباتات مجففة ومسحوقة ، ثم اكبت على القدر ، وتمتمت بعض التعاويذ وطفقت تحدق فى النار

وخاطبت نفسها قائلة واللهب يلفح وجهها :

ـ هناك أشخاص لاتفتأ تعذبهم ثلاث كوارث : الكارثة التى حلت بهم بالامس ، والكارثة التى نزلت بهم اليوم ، والكارثة التى يتوقع خيالهم المريض أن تعصف بهم غدا ... وهؤلاء الاشخاص هم الضعفاء ، هم فرائس الحيـــاة لانهم فى الواقع فرائس انفسهم ... أما أنا فلن أكون ضـــعيفة . لن أكون فريسة لنفسى وخيالى أبدا ! ... يجب ... يجب أن أقدم ! الانسان الذى يغامر قد يصيب الهدف أو يخطئه . ولكن الانسان الذى يجبن ولا يغامر لابد أن يخطىء جميع الاهداف ... ومع ذلك فهل فى مقدورى أن أفعل هذا ؟ لم أقدم ابدا على عمل كهذا لا أنا ولا اى مخلوق فى بلاد مصر بأسرها ! الكهنة المختارون ، هم وحدهم الذين اقدموا ونجحوا ... فهل أنجح أنا ؟ هل تسعفنى عبقريتى ؟ انها لاول مرة فى حياتى ... ولكنى لابد أن أجرب ... لابد أن أجرب اذا اقتضى الامر ... لابد أن أعرف مدى قوتى وسلطانى . لابد أن أستوثق من فيض روحى ، وسيال بصرى ، وتأثير عصبى وارادتى وعقلى ... ان الذى علمنى فنون السحر هو كاهن

آمون الاعظم . ولقد قال لى أن فى وسعى ... فى وسعى اذا شئت ان اتسلط على غيرى ... فلماذا لا اجرب لو احرجت ؟ لماذا لا أحاول ؟ اننى فى الواقع اخشى لو تسلطت على انسان أن أفقد فجأة سلطانى عليه فيموت بين يدى !

ولكن لا ... لن يموت ... سأقرأ عليه ابلغ التعاويذ واوقمها وامضاها ... وسأرده الى الحياة باذن آمون العظيم ! ومتى اقترن فعل الروح بسلطان الآلهة ، فلابد أن يخضع الانسان فى النهاية ثم ينهض بعد المكاشفة والاعتراف ... وسيخضع «جالى» سيخضع لروحى ان لم يخضع لجسدى . سيذعن لمشيئتى وهو صاغر ... فلأمض اذن فى خطتى ولاتقدم ... ما الانسان ؟ انه لمنجم حى ، ولا قيمة لوجوده الا اذا حاولت ارادته أن تستخرج كنزه من الاعماق ! يجب أن اتقدم . هذا واجبى الوطنى ، وعلى ان أؤديه مغامرة بكل شىء ومستخدمة كل سلاح !

واستجمعت قواها ، واندفعت ... اندفعت نحو باب جانبى صغير ، وهمت بأن تفتحه . وفى تلك اللحظة ترامى الى سمعها من الساحة الكبرى صراخ جيش العدو وهو يهتف هتافا مدويا ، ويطالب رجال الشرطة باستعجال أمر القائد ، واعدام المصريين الاسرى . فارتعشت أمنريس وثار ثائرها . ولكنها خشيت أن يذهب بلبها الحقد ، ويفقدها سلطانها على نفسها . فتجلدت وتماسكت وابتسمت ، وقالت فى صوت رقيق لطيف وهى تفتح الباب الجانبى :

ــ تعال ... تعال ياجالى ... لاتخف ... لقد انصرف والدك ... أنا أعلم انه الآن مشغول عنى بما هو أهم بكثير منى فلا تخف ...

فبرز الشاب من مكمنه . فاحتوته المرأة بين ذراعيها ، وغمرته عامدة بقبلاتها ، وهمست فى أذنه وهى ترجف صوتها واعضاءها :

ـ كلما اقترب والدك منى ، غلى الدم فى عروقى ، وشعرت انى لا احب فى هذه الدنيا سواك ! لقد احببتك منذ أول يوم رايتك فيه ياجالى ... منذ اول يوم دخلت فيه هذا القصر وأصبحت اسيرة والدك ... ماذا فعلت بى ؟ لقد سلبت عقلى ، وامتلكت حواسى ، واستقر حبك منى فى الصميم . فلا تغضب على ... سامنحك كل ماتطلب ... كل شىء !

فصرخ الشاب وهو يكاد يبكى :

ـ ثلاثة أسابيع بطولها وانا أتعذب ... أراك تحبيننى ثم تعرضين عنى . تتلهفين على ثم تتملصين منى . وانا بين اقبالك واعراضك ، بين اقدامك واحجامك بين رغبتك وترددك ، اكاد أفقد عقلى ! الم يكفك انى خنت والدى فى سبيلك ؟ الم تفهمى انى استهدف للموت فى كل لحظة من اجلك ؟ الم تدركى انى اغار من ابى غيرة تمزقنى ، وان صدك يلهب نار غيرتى ، ويوشك ان يبتلينى بالهوس والجنون ؟ إنك ان تماديت فى صدك واعراضك ، فلن ارحمك يا امنريس وقد اقتلك واقتل نفسى !

فضمته فى عنف الى صدرها . وشخصت اليه باسمة وقالت :

ـ أفى وسعك حقا أن تقتلنى ؟

فتراجع الشاب مختلجا ، ونظر اليها نظرة مأخوذة ، وهتف :

ـ انا ؟ . . انا اعبدك يا امنريس . ولا أستطيع ، لا استطيع أن اتصور لحظة واحدة ان هذه اليد التى تلمسك فى خشوع يمكن ان تمتد يوما اليك ، وتلحق بجمالك الفتان اى أذى ! ولكنى أتألم . فارحمينى . اما أن تكونى الآن لى ، واما ان أعصى أمر والدى فأذهب من فورى والتحق بصفوف الجيش الاولى ، واظل اقاتل حتى أموت !

فابتسمت نصف ابتسامة ساحرة وقالت :

ــ لن تموت . حياتك غالية عند والدك وهى أثمن عندى واغلى !

وتملصت منه ، ومطت اعضاءها فى ليونة وئيدة مغرية . ثم هزت رأسها مستنفرة جدائل شعرها . فانسدلت الجدائل السوداء علي وجهها الجميل وطوقته كما تطوق السحب صفحة القمر . فشخص اليها الشاب مفتونا . فعادت والتصقت به . وقالت له فى صوت ثابت غائر خفيض :

ــ سأكون لك الآن على شرط ان تطيعني !

فحملق فيها مستفسرا ، وهم بأن يتكلم . ولكنها لم تمهله وأردفت :

ــ اذا شئت أن تظفر بى ، فيجب أن تكون قبل كل شيء انسانا ! اقهر فى نفسك الانانية والاستهتار والقسوة . تجرد من حكم غرائزك الدنيا . تحلل من تأثير فطرتك الغاشمة . تنزه عن التقاليد الاثيمة التى درج عليها قومك . ثم انظر ... الا ترى ؟ ألا ترى الظلم الذى يحيق بأبناء وطنى ؟ الم تسمع صراخ الجيش وانين الاسرى ؟ أيرضيك أن يقتل أولئك التعساء وهم عزل من السلاح ؟ ايرضيك أن يغتصب قومك نصف أرض بلادى ، ويمعنوا فى اضطهادها واذلالها وهى لم ترتكب فى حقهم اى ذنب ؟ تفوق على نفسك ياجالى ... دافع عن الحق والعدل والحرية ... انصر المظلوم على الظالم ... وارشدنى ، ارشدنى الى المكان الذى تعرفه حق المعرفة ، الى المكان الذى أخفى فيه والدك مفتاح أسوار المدينة ، مفتاح باب السور الرئيسى الذى يفضى الى قلب المدينة ، امنحك روحى وجسدى مدى الحياة !

فتأملها الشاب مذهولا . وظل يتأملها فترة ثم صرخ :

ــ تريدين النصر لفرعون ؟ تسعين لمجد بلادك وانقاذ

مواطنيك من ويلات الحصار ؟ أمازلت مصرية القلب والروح وانت هنا ؟ ولكنى لن أرضى . لا ارضى انا السيد بأن أصبح عبدا . الحق للأقوى . والحق يقره الاقوى . والحرية نعمة لايمكن أن يتمتع بها الا من كان اشجع واقدر وأقوى . فاخنقى هذا الحديث فى صدرك يا امنريس ، واعلمى انى لولا حبى العظيم لك ، ماترددت لحظة واحدة فى اغماد خنجرى فى عنقك !

فقالت امنريس وهى تتلوى :

ــ اذن فانت ترفض ؟

فأجاب وهو ينطرح على مقعد :

ــ أرفض رحمة بك وابقاء عليك .

فدنت منه فى بطء ، وتفرست فيه ، وقالت :

ــ واذا كنت انا الاقوى ؟

فرفع اليها بصره ساخرا وضحك . فقطبت حاجبيها ثم دنت منه أيضا ، ثم غافلته وانحنت عليه وامسكت بكتفه ... وفجأة صوبت اليه عينيها الواسعتين المتقدتين ، ورددت فى صوت غائر أجش وهى تحدق فيه تحديقا ثابتا ممعنا دافقا عميقا :

ــ أنا ... انا الأقوى ياجالى ...

وسلطت عليه نظرات مندلعة كالنار ، حادة كالسهام ، مرقدة ومذيبة كخمر ساحقة . ثم مدت يدها ، ومست جبينه بأصابعها ، وقالت وهى ما تفتأ تحدق فيه :

ــ نم ... اقول لك نم ... آمرك ... آمرك باسم آمون القاهر أن تنام ... آمرك أن تنفصل بروحك عن جسدك وتنام ! .. باسم آمون الذى يقهر الشر ، وتبدد شمسه سحب الظلام ، ويكتسح فيضه كالنيل رمال الصحراء ، آمرك أن تنام !.. يجب أن تنام ... انت نائم ... أنت الآن نائم ...

انت الآن ملكي .. أنت الان رهن اشارتي !

فجعل الشاب يغالبها وهو يتطوح . ولكنه لم يقو عليها . لم يستطع ان يواجهها . لم يجد فى عقله ولا فى ارادته مايعينه على اتقاء لهب عينيها . فاختلج بالرغم منه اختلاجا عنيفا ، وسقط راسه على حافة المقعد ، وراح فى سبات عميق . فانحنت عليه هادرة وقالت :

تكلم الآن ... قل ... أين ... أين مفتاح الاسوار ؟ . انه امامك . وانت تراه . فتكلم . اين هو ؟

فلبث يكافح بضع لحظات ثم غمغم فى صوت كانه خارج من اعماق كهف :

ـ هنا ... فى مخدع والدى ... فى مخدعه الخاص .. فى جوف القاعدة الخشبية التى ينهض عليها التمثال الصغير . تمثال ملوك الرعاة !

فأبرقت عينا أمنريس ، وأرسلت صيحة فرح قاصفة ، واتجهت صوب أحد الابواب ونادت :

ـ تامينا ... تامينا !

فلاحت الجارية مذعورة مهرولة . فما ان أبصرتها آمنريس حتى ارتمت عليها وأهابت بها :

ـ الى القاعدة ... قاعدة تمثال ملوك الرعاة ... فى مخدع القائد ... المفتاح هناك . فارفعى التمثال فى رفق ثم انزعى المفتاح من جوف القاعدة ... ثم ردى التمثال الى موضعه ، واصعدى حالا الى سطح القصر ، واحملى المفتاح الى رحيو الذى عليه أن يتسلق الاسوار مسرعا ، ويسلم المفتاح الى أمين سر فرعون ! ... هيا ...

فبهتت الفتاة ، وألقت على الشاب النائم نظرة مستغربة . ثم لمعت عيناها وانطلقت من فورها الى الخارج وهى تعدو

وكرت أمنريس راجعة ، وحدقت الى الشاب وارتجفت ..

لا ... انه لن يموت ... لا ينبغى أن يموت ... ولكن أفى وسعها أن توقظه ؟ أفى مقدورها أن ترد اليه الحياة ؟ يجب ، يجب أن يستيقظ ... يجب أن يعلم ... يجب أن يدرك أنها كانت هى الاقوى !

واستنهضت كل قوى روحها ونفخت فيه ... استعانت بأقدر آلهتها وأفعل تماويذها وأبلغ مايمكن من علم وحزم فى لباب عبقريتها ، ثم مست جبين الفتى بأصابعها ، وسلطت عليه صفوة فكرها وايمانها وارادتها . فتحرك بغتة وتململ . ثم فتح عينيه الحالمتين الزائغتين ، ورفع رأسه ، وتطلع اليها ..

واشرق وجهها . اما هو فلم يكد يبصرها حتى تنفس وابتسم ... ابتسم كالطفل المطيع . ابتسم كالحمل الوديع . فابتهجت امنريس وابتسمت هى ايضا . فبسط الشاب ذراعيه وقال وهو تائه :

أين أنا ؟ بى صداع ... ماذا وقع لى ؟ أنا فى شبه نشوة .. هل شربنا خمرا ؟ اين كنت ؟

فقالت امنريس ضاحكة :

ـ كنت هنا ... معى ... لم تبرح مكانك ولم تشرب كأسا واحدة . مابك ؟

أتشعر بدوار ؟ ربما كنت قد فكرت فى شىء احزنك ؟

فقال :

ـ لا أذكر ... لا أذكر شيئا ... لا اظن ...

فملك الزهو امنريس ، وأيقنت من سلطانها .

فأرادت أن تضاعف شعورها بهذا السلطان ، فصاحت بالشاب آمرة :

ـ اسرع الى بمرآتى .. هاتها واجث أمامى . وابق جاثيا ريثما أضفر شعرى ! ...

فهب واقفا ، وجاءها بالمرآة . ثم زحف اليها كالكلب وجثا عند قدميها ، وظل جاثيا وهى ترمقه بنظرة جانبية وتعقد لاهية جدائل شعرها ...

ولما راته فى وضعه الزرى صابرا جامدا خاضعا ذليلا ، واستوثقت من قوتها وضعفه ، اشتد احتقارها له وحقدها عليه واشمئزازها منه . فنهضت واثبة وهمت بأن تطـرده . وعندئذ ، وقبل أن تنبعث من شفتيها المتلويتين كلمة ، ترامت الى الحجرة صيحات بعيدة ، صيحات متقطعة ، صيحات مروعة مصحوبة بدوى أبواق وصفير سهام ودق طبول وصهيل خيول . فأصاخت أمنريس السمع وهى ترتعش ، ثم قالت وقلبها يخفق :

ــ اتسمع ؟ أتسمع ياجالى ؟ ..

ثم ومضت عيناها ، وانفجرت كوامن حقدها وصرخت :

ــ لقد هجم فرعون ! ان والدك لن يعود الآن وقد لا يعود أبدا ! انها المعركة ! .. المعركة الفاصلة !

فقال الشاب وهو ينصت :

ــ لاشك أنها قد بدأت منذ حين !

واقتربت الصيحات ، وتعالت كأنها هدير الموج ، فارتج صرح القصر المجاور للاسوار ، وتجاوبت حوله الصرخات ، مختلطة مشوشة عاتية ، اشبه باندفاق سيل ، أو زمجرة رعد ، أو زئير غابة تتناحر فيها وحوش . فتلفت الشاب مضطربا حائرا وقال :

ــ ينبغى أن أذهب .. يجب أن الحق بالجيش ..

فعاجلته المرأة بقولها :

ــ ماذا تنتظر ؟ اذا كنت صادق الرغبة فى القتـال ، فأسرع ..

فتقدم خطوة وغمغم مستجديا :

ـ امضى ؟ هكذا ؟ وأنا بعد لم اظفر منك بأى شىء ؟

فقهقهت أمنريس قهقهة طويلة ، وقالت :

ـ اتفكر الآن فى نفسك ؟ أتريد أن تظفر بالمرأة أولا ؟ اتغلب نداء حبك على دعوة واجبك ؟ أهذه هى القوة التى كنت تفخر بها منذ لحظات ؟

فلم يحفل بكلامها ، واندفع نحوها ، وقال وهو ينتفض :

ـ قد أموت فى المعركة ! فلابد .. لابد ان أظفر بك ياأمنريس قبل أن أموت !

فصوبت اليه عينيها المتقدتين وقالت :

ـ وأنا .. أنا أريدك أن تبقى ! .. وأنت ، أنت نفسك تعتمد على شفاعة والدك القائد ، وتريد أن تفر من القتال وتبقى ! فابق اذن . ولكن لا لتستمتع بل لتسمع ! أفاهم أنت ؟ سأمزق الغشاوة عن عينيك ، وأسر اليك نبأ يسجل ضعفك ، ويفضح رجولتك ، ويلمسك قوتى التى سخرت منها واستهنت بها ! فاسمع النبأ وانقله الى والدك وليكن ما يكون !

ومالت اليه بجمعها ، وهمت بأن تتكلم ، ولجب المعركة يتدفق عليها ويصم أذنيها ويدوى حوالها كبحر مصطخب

وفى تلك اللحظة فتح باب الصدر فى عنف ، وبرز منه القائد سالتيس . فما أن أبصر الشاب والده حتى أرتعد وملكه الذعر . فاندفع نحوه وقال :

ـ جئت أبحث عنك ! .. كنت أخشى أن يهجم فرعون الليلة فجئت لانبهك ...

فلم يكترث له سالتيس ودخل .. دخل البهو محدودب الظهر ، مشعث الشعر ، مخضب الوجه بالدم وملوث الصدر بالوحل والتراب ، وصاح بأسيرته وابنه وهو يرجف :

ـ أعدوا أمتعتكم .. وارحلوا . ارحلوا حالا .. الى قصرى

فى الصحراء ! لقد انهارت مقاومة جنودنا ، وزحف العـدو ، وأصبحت جيوشه أمام الاسوار !

فخفق قلب أمنريس فرحا وزهوا ، وصرخ الشاب :

ـ انتصر فرعون ؟

فصاح القائد وهو يهدر :

ـ انتصر . ولكنه لن يدخل ! .. لن يدخل اليوم المدينة مهما حاول ! لن يدخلها الا وهى كومة من رماد ! سيحاصرها ولا ريب أياما ، بيد أننا سنهدمها . سنحرقها . سنأتى على كل شيء فيها من انسان ونبات وحيوان ! لن يدخل اليوم فرعون المدينة مهما حاول !

فوثبت امنريس كوحش مفترس ، وواجهت القائد شامخة متحدية ، وصاحت بأعلى صوتها :

ـ بل سيدخلها ! وسينفذ فيها كما ينفذ الخنجر فى قطعة من عجين !

فتحول اليها القائد مروعا مستنكرا ، ولكنها لم تمهـله وأردفت :

ـ ان فى يد فرعون الآن مفتاح الاسوار ! ... وأنا .. انا التى اقتنصته .. أنا التى سرقته .. انا التى انتزعته من ولدك هذا ... من ولدك ... أتفهم ؟

فوجم الرجـل وجحظت عيناه . فاستطردت أمنريس كمعتوهة :

ـ لقد خنك ولدك وأحبنى ! خنتك وأحبنى . فاستدرجته وأردت أن اعرف منه اين أخفيت انت المفتاح ولكنه كان جبانا يحب حياته أكثر منى ، فخشى أن تقتله وأبى أن يهدينى .. ومع ذلك فقد انتزعت سره بالرغم منه ! أتدرى ماذا فعلت ؟ لم انتصر عليه بمحاسنى ... لم أنتصر عليه انتصارا رخيصا بوصفى أنثى ... كان ذلك فى وسعى ولكن الوقت كان يسرع

فرعون بالابواب . فقهرت والدك بسحرى ، بفنى ، بالعلم ... بعلم المصريين الذى لايبارى .. نومته .. أتفهم ؟ اخضعته لارادتى ... فصلت النفس منه عن الجسد ، وهبطت الى أعماق روحه وانتزعت السر ! .. فهو .. هو الذى خانك مرتين وأرشدنى ! والمفتاح فى هذه اللحظة هناك ... فى يد فرعون ... انتقل من قاعدة التمثال الى يد فرعون ! وسيدخل فرعون المدينة ... الآن ... سيدخل ممفيس الان ، وينقذ اسرانا ثم يطبق عليكم ، ويفتن فى التنكيل بكم ، قبل أن تثأروا ايها المتوحشون من بلاده ورعاياه ! أما انا فلن افر معكم ! لن أتبعكم ! لن أبيح نفسى بعد اليوم لطاغية ! لم أعد أسيرة ! .. لقد تحررت !.. فاقتلونى .. اقتلونى اذا شئتم ، فقد أديت واجبى !

فالقى عليها الوالد والولد نظرات متربصة متحفزة ملؤها الحقد والكمد والبغض . ولكنهما قبل أن يثبا بها ، وقبل أن تصمت هى وتلتقط أنفاسها ، تصاعدت من النافذة بغتة صرخات جنود فرعون وهم يدخلون المدينة من باب السور الرئيسى ، ويتدفقون على أحيائها هاتفين مهللين . فطاش صواب الرجلين ، وجن جنونهما ، فانتزعا خنجريهما ، وانهالا بهما طعنا على أمنريس

وسقطت الشهيدة المصرية على الأرض ، وجاهدت ما استطاعت لتدنو من النافذة . ولكن بدنها تصدع فجأة وهوى . فلفظت أنفاسها الاخيرة وهى ترهف السمع الى تهليل الجنود وتبتسم ... !

بلاد فارس

معركة الشرف

« كان « البارتيون » وهم قبائل انحدرت من شمال غرب آسيا ، يحكمون بلاد فارس حتى عام ٢٢٦ للميلاد . ولكن البطل الفارسي الصميم « ارتكزرسيس » أعلن الثورة عليهم وحاربهم وحقق استقلال بلاده . ففي ذلك العام نفسه ، وفي قصر من القصور المجاورة لسهول مدينة « كرمان » حيث كانت رحى القتال ما تزال دائرة بين البارتيين وجيوش الفرس الاحرار ، وقعت حوادث هذه القصة التي يفخر بها التاريخ الفارسي »

كان الشريف الفارسي « سيروس » كهلا فى نحو الستين من عمره ، أشيب الشعر ، غليظ الانف ، محدودب الظهر ، تبدو عليه مظاهر شيخوخة مبكرة ، يحاول ما استطاع ان يلطفها بروحه المرحة وحديثه العذب

وكان هذا الكهل الدميم يحب صبية فى الثانية والعشرين من عمرها هى النبيلة الشائقة الحسن « جولستان » زوجة السيد الظريف الرائع الجمال « رستم »

كانت هذه المراة آخر حب فى حياة الكهل سيروس . وكان قد التقى بها لاول مرة فى احدى الحفلات بعد أن توفيت زوجته . فهام بها ، وأسرع فتعرف الى زوجها ، واتصل به ، واصبح صديقا حميما له ، وظل ثلاثة أعوام كاملة يزور قصر رستم دون أن ينطق لسانه بكلمة واحدة تنم عن حبه الخارق وعذابه العميق .

ولم يكن سيروس ينشد فى هذه الدنيا غير التطلع الى وجه جولستان ، وتأمل عينيها السوداوين الساحرتين ، والاستماع لصوتها الساكن الرخيم ، ومراقبة ابتساماتها الرقيقة الحلوة وهى تنبثق من شفتيها الحمراوين أشبه

بزهرة عجيبة لاتلبث أن تتفتح حتى تملأ الجو كله عبيرا وبهجة وطربا

والحق أن كتمان الحب ، وتقديس الحبيب ، والصبر على العذاب ، كانت فضائل تصدر عن عقيدة الشرف الراسخة التي كان يمجدها سيروس ويأخذ بها سواء في عواطفه الخاصة، او في سلوكه مع الناس ، أو في وطنيته الصـادقة التي طالما برهن عليها بسعيه المطرد لاستقلال بلاده ، وبذل امواله لنصرة المجاهدين في سخاء لايبارى

فعقيدة الشرف في المعاملة ، وفي الوطنية ، وفي الحب كانت شعاره . وكان هذا الشعار هو فخره وملاذه ، يحرص عليه في دقة وصرامة وكبر ، ويستمد منه القوة يخنق بها غرامه في اطواء نفسه وهو يبتسم في المجتمع ويضـحك ، ويتلوى في الوحدة ويجأر ويبكي ...

وكان يعلم علم اليقين أنه كهل ودميم ، وأن حبه عاطفة مستنكرة ومخبولة ومستحيلة التحقيق . ومع ذلك فقد كان يتحمل ويرضى ، مكتفيا بنعمة النظر الى جولستان ، منتشيا بسماع صوتها الرخيم ، صامتا ثابتا متجلدا ، لايشكو ولا يتململ ...

بيد أن مأساته لم تكن في شعوره بلوعة ضعفه ، وحسرة عجزه ، ومرارة يأسه ، بل كانت في شعوره بأن جولستان نفسها تتألم ، وأنها تاعسة ومنكودة ، وأنها تحب زوجها الى حد الهوس ، وان زوجها الرائع الجمال رستم ، يغرر بها ، ويضللها ، ويخدعها ، ويتبع كل حسناء عابرة حتى ولو كانت متبذلة وفاجرة ومن شر الغواني

فحب جولستان لزوجهـا كان لايعذب الـكهل العاشق المسكين بقدر ماكانت تعذبه خيانات الزوج الفاضحة ، وصورة الالم العميق المرتسم على محيا جولستان ...

وكان الكهل يعبدها ويتمنى ان يراها سعيدة . وكان زوجها ينبذها ويأبى الا أن يجعل منها اشقى النساء . فهذا الشقاء هو الذى كان يحز فى صدر سيروس ، ويضاعف حبه ، ويملأ حياته كآبة وغما

ولم يكن فى وسعه ان يبصر جولستان وهى تتألم . لم يكن فى مقدوره أن يلمحها وهى تبكى ، وتسبل أهدابها الطويلة على عينين ذابلتين متقرحتين بائستين

وامضه عذابها ، وضاق صدره ذرعا بمسلك زوجها . فوطن النفس على بذل المستحيل كى يرد رستم الى جولستان ويسعدها ...

ولم يتردد وشرع يكافح . شرع ينصح الزوج ويرشده ، ويهديه ويوجهه ، ويبرز له محاسن امرأته ، ويشيد باخلاصها وولائها ، ويقارن ويفاضل بين مفاتنها البريئة الطاهرة وبين مابكمن فى طباع الغوانى من غرائز منحرفة وفاتكة ، سداها العشق المبرح ، ولحمتها الخبث والدهاء والطمع والغدر

وكان العاشق الكهل ينصح وهو يتجلد ، ويوفق وهو يتفطر ، ويحاول ان يقرب ويصلح والحسرة توشك أن تعتصر فؤاده ، وتفجر من عينيه الدموع . ولكن الزوج لم يتأثر ولم يحفل ، سخر من صديقه ، وصد عن امرأته ، وعاد يعب ظامئا فى ملذاته دون ما وازع من رحمة أو رادع من خلق أو ضمير

وكان رستم موزعا حياته بين النساء والحرب . ينخرط فى سلك النبلاء المتطوعين ويقاتل اعداء بلاده فترة ، ثم تستبد به شهواته ، فيهرع الى الغوانى ، ويظل اياما بطولها يعبث ويلهو حتى تعاوده نزوة الحرب فيكر راجعا الى ميدان القتال

فهذا التوزع المنكر فى شخصيته ، هذا التوزع المقرون بالتجرد المطلق من فكرة الواجب وعقيدة الشرف ، كان هو الرذيلة التى حاول الكهل سيروس ان يخنقها فيه ويحرره

منها . غير ان رستم كان طائشا بالفطرة ، عربيدا بالسليقة ، لا يتذوق الحياة الا اذا عاش فى الفوضى ، وأطلق العنان لشتى غرائزه . فلما لم يكترث رستم لنصح سيروس واشتد اقباله على معاشرة الغوانى ، احتدم سخط جولستان ، وثارت كبرياؤها ونهشت قلبها الغيرة ، فشاع فى أخلاقها الوديعة الرقيقة تجهم طارىء سرعان ما اقترن بسهوم واجم مرهوب

تحولت جولستان وتبدلت هى الاخرى ... بدأت تنظر الى الحياة ، وتصبو الى الدنيا ، وترمق الشباب المعجبين بها ، وتفكر هى أيضا فى أن تعيش وتكيد وتنتقم ...

زايلتها براءتها الناضرة ، وعزتها الراسخة ، وكرامتها الشامخة ، وراودتها الخلاعة ، وخالسها التبذل ، وأوشكت جاذبية الاغراء أن تجرفها وتجعل منها وهى السيدة النبيلة شبه غانية

واحس العاشق الكهل بتحولها وارتجف . هاله أن تتدهور . هاله أن تتلوث . هاله ان يتحطم المثل الاعلى الذى صاغه منها واحبه فيها . فجثا على الارض ذات يوم أمامها ، وتوسل اليها أن تصون شرفها ، وتصون عرضها ، وتظل أفضل وانبل من زوجها ، عساها أن تخجله يوما بصنيعها ، وتسترده فى النهاية وتنقذه وتنقذ نفسها

بيد أن المرأة كانت قد استحالت الى مخلوقة موتورة حاقدة متربصة ، اظمأ ما تكون الى الثأر والتشفى

واستشعر الفرسان الشباب تغيرها ، فتراموا عند قدميها متسابقين . فتأملتهم والكمد يدفعها ، والخوف يلجمها ، وبقية باقية من عفة وحياء تحول بينها وبين القيام بالخطوة الفاصلة ، التى يتلهف قلبها الحاقد عليها . ولكن حقدها كان أقوى منها فضعفت ، وميزت من بين الفرسان شابا ، اقبلت عليه مختارة وهمت بأن تتصل به

وعندئذ لم يتردد الكهل سيروس ، وحزم أمره ، واقسم أن ينقذها . آلى على نفسه أن يصرف الفارس الشاب عنها ، ولو تنكرت له المرأة وأبغضته وطردته

واتصل بالفارس الشاب فعلا وحذره ... توعده بمكاشفة الزوج عن حقيقة نواياه . ففزع الشاب وتراجع واختفى . فتنبهت جولستان وادركت أن سيروس هو الذى فعل هذا . فاستهولت جراته ، ونقمت عليه ، وقام بنفسها أن تتنكر له وتطرده . ولكن الرجل كان رقيقا ، وكان طيبا ، وكان فى حبه المخلص وغايته النبيلة شريفا حقا وعظيما . فأشفقت عليه جولستان ؛ واكبرت عاطفته ، وضنت بصداقته ، ولم يغضبها فى قرارة نفسها أنها حرصت بفضله على شرفها ، لانها كانت فى الحقيقة ما تزال تحب زوجها وتأمل وهى تفكر فى الثأر منه ان يثوب يوما الى رشده ، فيرتد اليها قبل أن تزل بها القدم . غير ان رستم الخليع كان فى خلال هذه المحاولات جميعا لايرى ولايسمع ولا يعى . كان ممعنا فى اعراضه ، سادرا فى غيه ، مطلقا العنان لشهواته ؛ مستغرقا لا فى اللهو فقط بل فى الحب ... كان قد وقع فى حب غانية مشهورة تدعى « امسترس »، خلابة سلابة رواغة ، عرفت كيف تحتال عليه وتبتز ماله وتتفوق على أترابها جميعا وتتصيده

وكان رستم قد تورط ورهن خفية بعض املاكه وباع البعض الآخر لينفق عليها . فعلمت بذلك جولستان . فاشتد سخطها وهياجها ، وطالعها شبح الخراب .. فعزمت ان تغامر بحبها وحياتها ، فاما ان يقهر زوجها غرائزه ويهجر عشيقته ويصبح لها وحدها ، واما أن تضحى به غير آسفة وتنفصل عنه !

واحس سيروس أن الكاس توشك أن تفيض ، وأن ثورة جولستان قد تجرف فى طريقها كل شيء . فالتمس اليهـا أن

تتعقل ، والتمس اليها أن تتريث ، وأن تدعه هو يتصل بزوجها ويحاول مرة أخرى أن ينبهه ويرشـــده ويوقظ فيه روح الشرف وحاسة الضمير

ولكن المرأة كان قد نفد صبرها ، فانتهرت الكهل المسكين ، وصبت عليه جام غضبها ، وطردته ذات ليلة ، ثم استجمعت قواها وانتظرت مقدم زوجها ، وتهيأت لمكاشفته بما علمت وبما استقر عليه عزمها

وكان سيروس ينظر اليها مسلوب الحـــول طائر اللب ولا يستطيع حيال عزمها القاطع أن يعترض حتى بكلمة . فلمـــا صرفته زاجرة آمرة ، خرج وهو مطرق الرأس عاجزا وذليلا ، وتنفست هى الصعداء ، ومضت فاستلقت على احدى الارائك وراحت تفكر فى ماضيها وحاضرها وما يمكن أن ينتهى اليه فى غد مصير حياتها ، تبدل كل شيء فى لحظة مروعة خاطفة ووقع مالم يكن فى الحسبان ...

تصاعد من الخارج فجأة صوت زوجها ... وكان الصوت أبح مزعجا متحشرجا ملهوفا . فأجفلت جولستان ونهضت ، وظلت واقفة شبه مأخوذة تتطلع وتلهث وتنتظر ...

ودخل رستم ..

دخل جاحظ العينين ، غائر الوجنتين ، مشعث الشعـــر متهالكا ومنسحقا . فاندفعت اليه جولســـتان بالرغم منها ، وتلقته مذهولة بين ذراعيها ، واختلجت وانخلع قلبها . نسيت فى لحظة كل شيء .. نسيت ذلها وغيرتها وعذابها . نسيت حقدها وثورتها وعزمها ، وضمت زوجها فى عنف الى صدرها ، وهتفت به وقد استفاق حبهـــا وغمرها بالشفقة واللهفة والحنان :

ـــ مابك ؟ تكلم ... مابك ؟

فاجال رستم فى امرأته بصرا زائغا ثم دس فى جيبـــه يدا

مرتعشة وأخرج منه كيسا مملوءا بالنقود ، القى به على المنضدة وصرخ :

ـ من أجل هذا المال .. من اجل هذه الثروة .. بعت انا يا جولستان كرامتى وضميرى وشرفى !

فحدقت اليه كمخبولة وحاولت أن تتكلم ، ولكنه لم يمهلها ورفع رأسه جاهدا ، والتعط أنفاسه ، ومضى يقول وكلماته تتقطع وتتعاقب فى سرعة محمومة كأنها سيل منهمر :

ـ الوطنيون يطاردوننى ! انهم الآن فى اثري .. أتفهمين ؟ كنت فى حاجة الى مال ... الى مزيد من المال أنفقــــه على امسترس .. على عشيقتى .. فلم أتورع ، وتجـردت من سلاحى ، وتركته فى مخدع أمسترس ، ثم انسللت الى خطوط أعدائنا ، أعدائنا البارتيين ، واتصلت بهـــم ، وساومتهم على أسرار جيشنا ، وبصرتهـــــم بكمين كان قد أعده لهم بعض جنودنا . فأطبق البارتيون فجأة عليهم وجردوهم من سلاحهم وذبحوهم .. ذبحوهم .. ولكن قائدهم الفارسى نجا بأعجوبة فابصرنى .. لمح طيفى فى الظلام الدامس وأنا اكر راجعا الى خطوطنا وألوذ بالفرار . فأيقن من جريمتى ، وتعقبنى ليعرفنى فانطلقت أركض كمعتوه عساى أن اصل الى هنا قبل أن يتبين الرجل موقع بيتى . ولكنه رآنى .. رآنى وأنا أدخل البيت . رآنى وان كان لم يعرفنى فطفق يصرخ ويتوعدنى . ولما كان اعزل من السلاح فقد انكفأ راجعا وتغلغل فى بطن الظـــلام واختفى . فهلع قلبى ، وصعدت الدرج وثبــــا ، فالتقيت بسيروس وهو خارج من عندك . فتشبثت به ، وقصصت عليه فى بضع كلمات ما حدث ، والتمست منه أن ينقذنى فذهل الرجل وظل يرتجف ، ثم سبح فترة وشرد ، ثم أطرق برأسه وألقى على نظرة رثاء مزقتنى . ثم وعـــدنى بأن يذهب الى عمدة القرية ويستخدم نفوذه لديه لانقاذى .. انقاذى ؟ أممكن

هذا ؟ ان سيروس لن يلوث شرفه ويشفع لى ! أما العمدة فلن يستطيع ان يتنكر لواجبه وينقذنى . وما أنا فلو فررت فستثبت التهمة على ! لابد اذن من الخضوع والتسليم ! سيكون القائد ورفاقه هنا بعد لحظات .. وسأحاكم .. سأحاكم وأعدم شنقا ياجولستان .. فاشفقى على ، واصفحى عنى . فأنا سأموت ولكنى أعلم بأنى أستحق أن أموت ! لقد عذبتك وشقيتك وجلبت عليك العار ! لقد ختم الحب الاثيم على بصرى . لم تكن لى فى الحياة غاية غير شهواتى . أجل . كنت وضيعا . كنت حقيرا . كنت دنيئا . ومع ذلك فأنا أشعر الآن أن ندمى الصادق يمحو جرائمى ، وأن حبل المشنقة لا يخيفنى لانى قد كرهت نفسى وكرهت الحمأة الملعونة التى كنت اتمرغ فيها راتعا فى رذائلى ! فاشفقى على ياجولستان ولا تحزنى ! لا تحزنى بل ابتهجى . ابتهجى ليقظتى ، وقدرى توبتى وندمى واصفحى عنى !

وانتفض انتفاضا عنيفا وبكى . فأرسلت جولستان صيحة ملتاعة ، واتجهت ببصرها نحو خنجر صغير كان مثبتا فى الحائط ، فانتزعته وقالت :

ـ بهذا سأقضى على نفسى لو قتلوك يا رستم !

فصاح وهو يجردها من السلاح ويلقى به على المنضدة :

ـ بل يجب أن تعيشى لامضى أنا مثلج الصدر قريرا ، شاعرا على الاقل بأننى قد انقذتك منى وأسعدتك !

فتمزق قلب المرأة ولم تجب . وتحسست بدن زوجها فى خبال ، وروعها أن يعود اليها نادما مستغفرا متساميا ثم تفقده . فطفقت تقبله وتضمه الى صدرها . وانهمرت دموع الحسرة من عينيها ، واحتواها اليأس والرعب

ولبث الزوجان فترة طويلة تائهين شاردين متعانقين ، يلوذ الواحد منهما بالآخر ، وينصت كلاهما الى وقع انفاسهما

المتعاقبة المتهافتة ، وهما يختلسان النظر الى الباب وينتظران حكم القدر ...

وفجأة ، ومن خلال الصمت الزافر كأنه ضباب عاصفة ؛ ترامت الى سمعهما حركة بعيدة ، ضجة غريبة مشوشة وغامضة . فاقشعر بدن رستم ، واستبد الرعب بجولستان ، وفتحت النافذة الكبيرة وحدقت الى السهل الفسيح ..

وانجذب زوجها الى منطلق الصوت فتبعها ، وتفرس فى الظلام الحالك مثلها ، وحاول هو أيضا أن يسمع ويتبين ويرى ...

وفى تلك اللحظة ، وبينما الزوجان يطلان على السهل الفسيح، اشتدت الجلبة واحتدمت الاصوات ثم خفتت بغتة وتصاعد من بينها صوت بعيد . صوت عميق . صوت فيه أمر وفيه قضاء . فارتعشت جولستان ونظرت الى زوجها مستفسرة ثم اتقد وجهها على الفور ، واندلعت عيناها ، وملكتها فكرة لم تستطع أن تقاومها . فاندفعت نحو الباب وفتحته ، وهمت بأن تهبط الدرج . ولكنها لم تكد تفعل حتى تراجعت وهبط قلبها فى صدرها .

أبصرت فلاحة من خدمها مقبلة عليها . تلطم وجهها بكفها ، وتلهث وتجهش بالبكاء . فثار ثائر جولستان وصاحت بها :

ــ كيف تركت بيتك وزوجك فى مثل هذه الساعة ؟ ما الذى أيقظك وماذا حدث ؟

فتطلعت الفلاحة فى ذعر الى سيدتها وقالت وهى تبكى :

ــ لقد قتلوا سيدى الشريف سيروس !

فصرخت جولستان

ــ ماذا تقولين ؟

فغمغمت المرأة :

ــ لقد اعترف .. أمامنا .. اعترف بأنه هو .. هو الذى

بصر العدو بالكمين الذى كان قد أعده له جنودنا . فحاكمه القائد ورفاقه وأعدموه الآن شنقا فى الساحة الكبرى !

فقام الجو فى عينى جولستان ، وأحست كأن الارض تميد تحت قدميها .. فصرفت الفلاحة ولبثت لحظة شاردة .. ثم التهب فكرها واضطرم خيالها وازدحمت فى ذهنها الاطياف والرؤى ، وتمثل لها سيروس ... تمثل لها الكهل المسكين ، بشعره الاشيب ، وفمه الغليظ ، ووجهه الدميم . فتأملته وهى ترتعش . وخيل اليها أنه يدنو منها ، ويطيب خاطرها ، ويسرى عنها ، وان فيضا ساحرا من النور يندفق منه وينسكب عليها . فاختلجت وأدركت الى أى حد بلغ حبه العظيم لها ، ولاية غاية سامية ضحى الرجل بنفسه وقضى . فأغمضت عينيها خاضعة ومعجبة ، مشفقة ومكبرة ، ثم تحركت واستدارت ومشت كمن يحلم ، واتجهت نحو قرينها . اتجهت نحو رستم ولكنها ما أن قاربته وواجهته وحدقت فيه ، حتى بهتت .. بهتت وارتعدت .. ارتعدت وفغرت فاها كبلهاء .. أبصرت زوجها ، زوجها نفسه ، زوجها الذى كان يتخبط الآن ويجأر ويبكى ، مشرق العينين ، ملتمع الوجنتين ، متألق التقاطيع ، ينظر اليها فى سكون هانىء واثق مطمئن ، ويحرك شفتيه فى لهفة محتجزة كأنما هو يهم بأن يهتف أو يبتسم . فطاش صوابها ، وأمسكت به ، وهزته من ذراعه هزا عنيفا ، وقالت :

— الم تسمع ؟ الرجل قد مات ! مات من أجلنا ! ضحى بنفسه من أجلنا ! فما الذى اعتزمته ؟ وماذا .. ماذا فى نيتك الآن أن تفعل ؟

فلم يستطع رستم كبح عواطفه ، وغلبته فرحته فابتسم فعلا ، ثم لوح بيديه تلويح اليأس وقال :

— وهل فى وسعى أنا أن أرد اليه الحياة ؟

فتفرست فيه جولستان لتفهم فلم يعبأ بها واستطرد يقول :

ـ انى لأقدر عظمة الرجل وقيمة نبله وتضحيته وفهمه لمعنى الصداقة . بل أشعر ان خسارة انسان مثله لايمكن أن تعوض . ولكن ماحيلتى . ؟ ماذنبى . ؟ ان مايعزينى هو انه كان رجلا طاعنا فى السن ، ولم يكن فى مقدوره ان يعيش اكثر مما عاش . . . على انه قد مات بمحض ارادته ولست أنا المسئول عن تضحيته . أن واجبى الآن هو ان اذكره بالخير واهتم بحياتك وحياتى فقط . . فاياك ان تنسى ياجولستان ان الشبهة ما تزال حائمة حولنا . . حول بيتنا . . وان القائد قد يحقق معنا فى اية لحظة . فاضبطى اعصابك ، وانظرى الى الواقع . . انظرى الى زوجك ومستقبلك . . صحيح انى قد أسات اليك فى الماضى وعبثت بك وخدعتك ، وبددت معظم ما أملك على الغوانى . ولكن هذه الحادثة بدلتنى . . ايقظتنى . . فأنا اقسم لك ياجولستان انى ساظل وفيا لك طوال حياتى ، وانى لن أخون عهدك بعد اليوم ابدا . . ساكون لك وحدك ! وسأتخذ من هذه الثروة . . من هذه النجدة . . هذه النجدة غير المنتظرة ، وسيلة لانقاذ نفسى من الخراب واسعادك

فلم تصدق المرأة سمعها وذهلت . خيل اليها انها قد فقدت رشدها . فأشارت الى المنضدة الجاثم فوقها كيس النقود وصرخت :

ـ أفى نيتك أن تستولى على هذا المال ؟

فأجاب ضاحكا :

ـ وهل تريدين أن أسلمه الى القائد واموت ؟

فقالت وهى ترتجف :

ـ ولكن هذا المال هو ثمن خيانتك ، هو ثمن أرواح اخوانك ، وثمن جثة الرجل العظيم الذى مات شهيدا من أجلك !

فقال ساخرا :

ـ واذن فيجب أن أبعث الاموات ، واقتل الاحياء : والقى

بهذه الثروة من النافذة ؟

فماجلته بنظرة صاعقة وقالت :

ـ لا .. بل يجب ، يجب أن تهبها لاسر ضحاياك ! لزوجات وابناء جنودنا الذين قتلوا بسببك !

فعيل صبر رستم وقال :

ـ لست من الغباء بحيث تسعى الى النعمة فأركلها بقدمى ! انت امرأة عاطفية حمقاء . أما أنا فلن أتغفل نفسى ولن أتنكر لحظى ولن أفرط فى هذا المال أبدا !

فدنت منه جولستان ، وتأملته . تأملت عينيه المتقدتين ، وشفتيه الملتهفتين ، ووجهه المتصاب المتورم المحموم ، وهالها تبدله . هالها تبدله الطارىء المنكر المخزى . هالها اسفافه واصراره وطمعه وغلظته . فارتدت عنه متأبية مستنكرة ثم قالت وقد تحولت عواطفها ، وأخذ الاشمئزاز بمخنقها ، ودوت فى صوتها عوامل الحنق والسخط والاحتقار :

ـ لو كنت شهما لما ترددت فى أن تفرط فى كل شىء ... فى المال وفى حياتك أيضا !.. كان الواجب يقتضيك بعد ان مات سيروس حافظا عليك شرفك وحاملا عنك عبء جريمتك ، أن تكفر أنت عن هذه الجريمة النكراء بنبذك المال الذى جنيته منها وانخراطك فورا فى صفوف المجاهدين ! هذا ماكنت أتوقعه منك بعد أن سمعت اعترافك ! هذا ماكنت أعتقد أنه لابد أن يصدر عنك بعد توبتك ! ولكنك لم تتغير ! اتسمع ؟ لم تتغير .. لقد خدعتنى .. خدعتنى مرة أخرى ! ولقد صـــدقتك .. صدقتك أنا .. صدقت توبتك وندمك لانك أنت كنت تصدق نفسك .. كنت تمثل على نفســك .. كنت وأنت تخدعنى تخدع فى الوقت ذاته نفسك وأنت لا تدرى ! أجــل . انت مجبول على التلون كحرباء .. انت مطبوع على سرعة التقلب كفانية .. كفانية لا تفتأ ترقب الريح لتتبعها متى هبت الريح

فى مصالحتها ! فأنت مازلت أنت ! الحياة عندك أغلى من الشرف؛ والمال أثمن من الضمير ! وغاية ما تنشده فى صميم نفسك هو أن تعود الى عشيقتك وتنبذنى ، وتنعم بالمال والعشيقة ومظهر الشرف على حسابى وحساب ضحيتك وضحاياك ! . فأين ؛ أين انت من عظمة سيروس ؟ أين انت من عظمة الشهيد المسكين ؟ انك لغير خليق بأن تعقد له رباط حذائه ! أتظن انه قد ضحى بنفسه لتعيش انت ، انت أيها الخائن المجرم ؟ لا .. لقد ضحى بنفسه لتدرك انت واجبك : فتكفر عن جرمك بأن تنبذ المال وتقاتل فى صفوف جنودنا مختارا وتموت ، فيسلم شرفك وشرفى ولا يقال عنك انك كنت خائنا وانى انا كنت زوجة لخائن ! هذا ما أراده الشهيد ! هذا ما اراده لانه كان يحبنى !. اتسمع ؟ كان يحبنى فى شرف ، ويأبى الا أن تموت أنت فى شرف وأعيش انا فى شرف ولو فقدتك ! ولو انه رآك الآن وانت تضن بحياتك على وطنك وتريد فوق هذا أن تقبض ثمن ضحاياك ، لبصق فى وجهك الحقير الدميم ثم قتلك ! لا .. لن أدعك تمد يدك الى هذا المال وفى صدرى نفس يتردد !

فذهبت الاهانة بلب رستم ، ومشى الى المرأة متحفزا وصاح :

ــ هذا المال فى حوزتى ، وسأحرص عليه جهدى ، فحذار ..

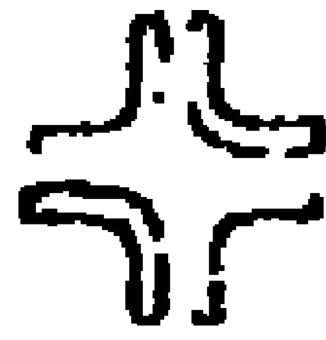
واندفع وهم بأن يمد يده الى الكيس . ولكن المرأة غافلته وهو مذهول ، واستلت الخنجر الجاثم فوق المنضدة ، ثم أنشبت فى الكيس أصابعها واختطفته ، ثم عدت صوب الباب وقالت فى صوت غائر وحشى وهى تلوح بالخنجر فى وجه رستم وتهدر :

ــ هذا الكيس يحمل شعار أعدائنا ويتهمك ! وما دمت تؤثر الحياة وتأبى الا أن تظفر بهذا المال الملوث على حساب شرفك ، فأنا .. أنا أيضا لن احفل بسمعتى وشرفى ولا بأن يقال عنى

انى كنت زوجة لخائن ! ساضع العدل فوق الشرف . بل سأجعل الشرف فى خدمة العدل ! انا . . انا التى سأبلغ عنك يا رستم !

وقبل ان يلحق بها وينقض عليها ، مرقت من الباب كالسهم ، واسرعت فأوصدته خلفها بالمفتاح . فجن جنون الرجل وطفق يضرب الباب ويدفعه فى عنف حتى حطمه ، ثم انطلق فى الظلام الدامس يصرخ وينادى امراته . وما أن لمحها وهى تركض ، حتى حث الخطى فى اثرها ، وظل يصرخ متوسلا ويناديها . ولكنها كانت قد قطعت الطريق كله ، واجتازت السهل الفسيح ، وأشرفت على خيمة القائد ، وبلغت خطوط المجاهدين ففقئ الظلام عينى رستم ، وطوح به اليأس والرعب . فتوقف متهالكا وجمد . ثم خارت قواه بغتة ، وتداعى ، وسقط على الارض مغشيا عليه

وفى الليلة نفسها ، حوكم رستم السيد الغطريف النبيل ، واعدم شنقا فى الساحة الكبرى عند مطلع الفجر



بلاد اليونان

القصاص

« دافع اليونانيون عن استقلالهم دفاعا مجيدا فى الحرب التى نشبت بينهم وبين الفرس فى سهل ماراتون عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت فى ذلك العهد حوادث هذه القصة والقصة التى تليها . وكان لتلك الحوادث اكبر الاثر فى النصر العظيم الذى احرزه اليونانيون على الفرس بزعامة ملتيادس قائدهم الشجاع »

كان الظلام حالكا فى ذلك الجزء القصى من قرية ماراثون اليونانية . وكان الشاب « تيمون » ، اشهر صناع الاسلحة فى بلاد اليونان ، يضرب فى ازقة القرية متطوحا كالشارب الثمل ومستغرقا فى التأمل والتفكير

وكانت الخواطر تتدافع فى ذهنه كموج مصطخب . فلم يقو على الصمود فى وجه تيارها . فاستسلم لها مكرها ، وشرع يخاطب نفسه ، وهو مذهول :

ــ كيف . . . كيف حدث هذا ؟ كيف خرجت روديس على اجماع قومها ، وأحبت القائد الفارسي الامير مردونيوس عدو بلادها ، واتصلت بأعوانه فى هذه القرية ، وعاهدته على الزواج، وغدرت بالقائد اليونانى البطل ملتيادس وهو يتهيأ لانقاذ امتها وتحريرها ؟ لقد خانت روديس وطنها ، ولكنها خانت ولاريب مدفوعة بتاثير الطمع لا بعامل الحب! انها تريد أن تكون أميرة . تريد ان تشاطر الاجنبى الحكم والسلطان ! تريد العز والسطوة والجاه العريض على حساب بلادها ! ولقد أيقن الزعيم القائد ملتيادس من خيانتها وكشف الستار عن دسائسها ، ثم اختارنى أنا، أنا تابعه وملازمه ، وعهد الى بأن اتعقبها ، ثم ألقى القبض عليها ، واستجوبها لأعرف من هم الخونة انصارها وأعوان القائد الفارسي فى بلادنا ، ثم اقتلها ! نعم . . . أنا الذى اعبدها يجب

ان أقتلها ! أجل ... هو ذاك ... ينبغى أن اؤدى واجبى ، واخنق حبى ، واعشق فقط وطنى ، وأطعن بهذه اليد ذاك الصدر الحبيب الذى طالما حلمت بأن أجعل منه راحتى ومستقرى ! ان ملتيادس يجهل أنى احبها . ومع ذلك فيجب أن اطيعه واقتل ! يجب أن أقتل ! ولكن أين ، اين هى روديس الآن ؟ لقد اختفت ... فرت ... وعبثا حاولت انا العثور عليها . عبثا طرقت كل بيت اشتبه فيه وكل دار يمكن أن تلجأ الخائنة اليها ! ولكنى سأجدها ! ومتى تمكنت منها ، فلابد ان انتزع سرها ، ثم اقتل قلبى واقتلها ! فلأهدأ الليلة اذن ، ولأصبر حتى مطلع الفجر القريب ... يجب أن ادخل بيتى وانام ... يجب أن أهدأ الليلة واصبر وانام !

ولمح داره جاثمة فى منعطف زقاق ضيق ، وابصر النهر الصغير الذى ينساب بالقرب منها . فأشرق وجهه ، ودنا من حافة النهر ، وتأمل فترة مياهه الساكنة ، وتاقت نفسه بالرغم منه الى الغوص فىهذه المياه ، والاندماج فىسكونها المنقذ العميق . ولكنه ارتعد ... فاستجمع قواه فجاة ودخل

دخل الدار وهو يلهث . فألفى حجرة والده المزارع « ديميتريوس » مظلمة موصدة . فأدرك ان والده قد نام . فاقترب من حجرة الخادم العجوز ، فسمعه يغط فى نومه أيضا . فتحول صوب حجرته هو ، فاستقبله نور خافت متراقص ينبعث منها . فاستغرب وتقدم . ثم فتح الباب ونفذ الى الحجرة ... ولكنه لم يكد يدخل حتى تراجع ... تراجع وهو مبهوت ... تراجع وهو مذعور ، اذ ابصر نفسه امامها ... امامالمراة الخائنة التى يبحث عنها ... امامحبيبته وطريدته الفاتنة روديس وجها لوجه !

وكانت روديس امراة مديدة القامة ، مليئة البدن . ذات بشرة غضة ناصعة ، وجبهة عالية ساطعة ، وعينين سوداوين

لوزيتين ناعستين ، وشفتين دقيقتين متأبيتين ، وخداسيل ، وانف مستقيم ، وفم كالثمرة الشهية ، ينفرج الوقت بعد الآخر عن قوس أبيض من الثنايا اللامعة المستخفية كأنها اللؤلؤ المكنون

وكانت مستلقية على شبه مقعد مستطيل ، تعبث بخصلات شعرها المرسل المموج ، وبصرها الزائغ يسبح فى الفضاء . فلما وقعت عينها على تيمون ، استوت على المقعد متحفزة وابتسمت . أما هو فاندفع نحوها ثم توقف وصرخ :

ــ انت هنا ؟ وفى بيتى ؟

فارخت اهدابها الطويلة ، وتثنت لحظة فى كلال ، ثم قالت فى صوت عذب رخيم :

ــ كنت أعلم أنك تبحث عنى، فسعيت من تلقاء نفسى اليك !

واردفت وهى ترشقه بعينيها الناصعتين :

ــ لقد استغرب خادمك العجوز مقدمى فى مثل هذه الساعة ولكنه رحب بى ، ولم يدخلنى الى البهو الكبير ، بل قادنى الى هنا ... الى مخدعك ... فابتهجت وطربت ...

ونهضت . فتماوجت اعضاؤها تماوجا ساحرا مغريا . فأشاح تيمون بوجهه ، وجاهد ما استطاع ليحول بصره عنها، ثم قال فى صوت جاف غايظ وهو ينظر الى الارض :

ــ روديس . انت متهمة بالخيانة العظمى . وتعلمين انى مكلف بعقابك وتأدية واجبى ! ولقد لجأت الى اعتقادا منك أن حبى قد يحرجنى ويضعفنى . ولكنى ساقتلك ياروديس وأن كنت اعلم علم اليقين انى أقتل روحى فى صدرى !

فوثبت المرأة بالشاب . وكشفت عن صدرها الابيض الغض، وصرخت :

ــ اقتلنى ... اقتلنى يا تيمون ! انا اعلم انى هالكة لا محالة ولكنى اقسم بالآلهة انى ما جئت اليك لاسترحمك . انما

جئت لاموت بيدك انت ! هذه اليد التى أحبها هى وحدها اليد التى يجب ان تطعننى !

فرفع اليها الشاب بصره فجأة ، وحدق فيها مستشيطا وهتف :

ـ ما أفظع غدرك يا روديس ! اتنشدين الموت منى بعد ان ابيت الحياة على يدى ؟ لماذا . . . لماذا ازدرتينى بالامس واعرضت عنى ؟ نعم . اعرضت عنى لانى لست جميلا . . . لانى اقرب الى الدمامة منى الى الجمال . . . لانى فتى قصير القامة ، جاحظ العينين ، غائر الخدين ، شاحب اللون ، مهزول البدن . اجل . اعرضت عنى لانى صانع سلاح متواضع ، وانت بنت سيد غطريف كان حاكما لاربعة أقاليم يونانية ! ومع ذلك فقد قربتنى اليك لشهرتى . . . لنبوغى . . . لاتصالى الحميم بالقائد ملتيادس سيدى وزعيمى . . . قربتنى اليك عامدة والهبت حبى ، ثم خدعتنى ! . . . خدعتنى وتنكرت أيضا لواجبك ولم تتورعى ! . . . وفى سبيل المال والسلطان خنت الحب وخنت الوطن ! . . .

والتقط أنفاسه واستطرد :

ـ كيف ، كيف تسمعين للاقتران بالقائد الفارسى عدو بلادك وهو على وشك ان يقاتلنا فى معركة هى معركة حياة أو موت بالنسبة لنا ؟ . . . لقد اتصلت بالاجنبى الغاصب وتواطأت معه علينا فحق عليك العقاب ياروديس . . ومع ذلك فأنا . . أنا أحبك . وأريد لك الحياة . فاذا شئت ان أرحمك الساعة، واشفع لك لدى الزعيم ، فارشدينى . . . ارشدينى الى اعوانك ، أنصار القائد الفارسى . . . أن بعضهم ما يزال هنا . . . فى هذه القرية . . . يعقد المؤامرات علينا ، ويتحين الفرص البطش بنا ! . فمن . . من هم أولئك الخونة ، وأين يختفون ؟ تكلمى . . . تكلمى ياروديس !

فقالت المراة وهى توشك ان تبكى :

ـ لا علم لى بشىء ! كل ما اعلم هو انى افتضحت ، وان الموت مصيرى ، وان جل ماأتمنى هو ان أموت اليوم بيدك يا تيمون! فقم بواجبك واقتلنى ! اقتلنى والا قتلوك انت !

فصاح من اعماق قلبه :

ـ ارشدينى الى أعوانك وانقذى نفسك وانقذينى ! انى احبك ! . . .

فقالت :

ـ اذا كنت حقا تحبنى فاقض على حالا وانج انت بحياتك !

وصمتت لحظة وهى ترقبه ثم اردفت :

ـ الا تريد ؟ اذن فالوداع ! الوداع يا تيمون !

ودست يدها فى صدرها ، وانتزعت منه قارورة صغيرة فارتمى الشاب عليها مسرعا ، واستخلص القارورة منها وصرخ :

ـ أكنت تحملين سما ؟ لماذا جئت اذن الى هنا ، ولماذا لم تنتحرى وتكفينى مئونة هذا العذاب ؟

فقالت :

ـ كان فى وسعى ان أتجرع السم وانتهى ، ولكنى اردت ان أموت بيدك لاوليك بقتلى شرفا عظيما يمكن ان يرفع قدرك فى عين زعيمك ، ويضاعف ثقته فيك ، ويؤهلك فى حالة انتصاره الى تسنم أرقى المناصب . لقد قلت فى نفسى ما دمت ساموت، فيجب أن يثمر موتى على الاقل مجدا وعزة لحبيبى . . . لهذا لم أنتحر ! ولهذا جئت أطلب اليك أن تقتلنى !

فصاح تيمون وهو يدس بين طيات حزامه قارورة السم :

ـ أالى هذا الحد تحبيننى ؟

فأجابت :

ـ وانت تحب واجبك أكثر منى . فانزل اذن على حكم

هذا الواجب الوحشي ، واقبل التضحية بي واقتلني ! لاتتردد يا تيمون ... لا تتردد !

وتصدت لهعارية الصدر ،محاولة الشعر . فلفحته انفاسها الحارة ، وغمره عبير بدنها العاطر فأمسك بها متلهفا ، وضمها الى صدره ثم تهاوى فجأة على نفسه ، وتمتم :

ـ لا استطيع ... لا استطيع ان اطعن قلبي بيدي ! ماذا ... ماذا أفعل لاحجب عاري ؟وماذا يمكن أن يحل في غد بوالدي لو عرف انى كنت مكلفا بعقابك ثم احجمت ؟ آه ... انى لاشعر الساعة بضعفي كما لم اشعر به أبدا ! انى لاخاف اغراءك يا امراة ، واخشى أن يعصف بي الآن حبي فأستمتع مكرها بك ، فاضيف الى خيانة الفكرة والمبدا خيانة القلب والجسد !

فصرخت المراة :

ـ خذني ... تمتع بي ثم اقتلني ! على انك لو ثبت الى رشدك وانقذتني ، فسأجعل منك أسعد مخلوق في هذه الدنيا! انى لاحبك الآن يا تيمون كما لم احب في حياتي اى رجل ! ففكر في سعادتنا . . فكر في نعيمنا . . فكر في شبابنا ومستقبلنا . . وتعال ... تعال معي ... اتبعني . . اتبعني وتخلص من الزعيم ملتيادس ،وصارحني . . صارحني بنواياه . . واكشف لي عن خططه . ثم دعني أفض بها الى القائد الفارسي مردونيوس . انه هنا ، مرابط بجيشه على بعد عدة فراسخ من القرية . وفي وسعي بفضل اعواني من اليونانيين أن أتصل به ، ومتى انتصر القائد الفارسي فسيتزوجني . وعندئذ احقق مطامعي ، فاتخذك انت . . أنت . . حبيبا لي وعشيقا . فتصبح السيد المطلق على قلبي ، وصاحب السلطان الفعلي على بلاد اليونان كلها ! تخلص . . تخلص من اوهامك واتبعني !!

فامتقع وجه الشاب وتراجع . تراجع مستنكرا مستهولا ثم تقدم ، واستل خنجره وعزم . فتحدته المراة وصاحت :

ـ اضرب ... اضرب ياتيمون لو استطعت !

فتأملها لحظة وهو يرتجف . فأخذت عينه الزائغة منبت صدرها العارى المنفتح فى نصوع واشراق كأنه زنبقة حية . فخارت قواه مرة ثانية وارتمى على الصدر متهالكا وهتف :

ـ سأتبعك ! سأتبعك يارودیس الى أقصى العالم !

فابرقت عينا المرأة ، وأوشكت ان تضحك . ولكنها تمالكت نفسها : وهمت بأن تنحنى على الشاب وتمنحه قبلة . وفجأة، وقبل أن تتحرك دار مصراع الباب فى هدوء ، ثم فتح على مهل، ثم دخل المزارع ديميتريوس والد تيمون ، فأجفل الشاب وتقهقر . واضطربت رودیس ، وحجبت صدرها بطرف ردائها ، ثم تطلعت الى الرجل . وما ان ألقت على ديميتريوس نظرة حتى انكمشت وبهتت وفغرت فاها كبلهاء

راعها مظهر الرجل على الرغم منها . فشخصت اليه وهى صاغرة ، ولبثت تنعم النظر فيه وترتعش

وقال الوالد لولده بلهجة الآمر :

ـ الا تقدم للسيدة الشريفة كوبا من الخمر ؟ لقد نزلت ضيفة علينا ومن واجبنا أن نرحب بها ونكرمها . اذهب الى القبو حالا ، وتخير من الشراب أجوده وأصفاه ، ثم هيىء الاقداح ، وأسرع الينا

وامتثل الشاب مكرها وخرج . خرج وهو حانق ثائر . ولكنه لم يكد يبلغ القبو الكائن فى مؤخرة البيت والبعيد عن مجرى النهر ، ولم يكد يهبط اليه ، ويهم بفتح بابه ، حتى برز اليه من جوف الظلام خمسة رجال مسلحين ، أطبقوا عليه . ثم شدوا وثاقه ، ثم دفعوه الى جوف القبو دفعا ، وطرحوه على الارض ، وأوصدوا عليه باب القبو بالمزلاج ، بعد أن هددوه بالموت ان هو حاول أن يصرخ ويستغيث

وانقضت لحظات طويلة ولم يعد تيمون ... وظلت روديس

ساهمة شاردة ، تنتظر مقدم الشاب ، وهى تحدق فى ذهول الى والده

وكان الوالد نقيض الولد تماما . كان كهلا فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه كان آية فى الحسن . كان جميلا وساحرا وقويا بقدر ما كان ابنه دميما وهزيلا وضعيفا

كان ديميتريوس رجلا ، وكان تيمون فتى غريرا . بل كان ديميتريوس شبه عملاق عريض الكنفين ، مفتول الساعدين ، وثيق العضل ، فى راسه الشامخ عزة ، وفى عينيه الزرقاوين الحادتين هيبة ، وفى اهدابه الطويلة المتراقصة فتنة ، وفى لونه القمحى المشرب بالحمرة صحة وفتوة ، وعلى شفتيه العابثتين المليئتين ابتسامة دائمة رقيقة ، تلطف من هيبته ، وتضاعف من سحره ، وتغرى الناظر اليه بأن يقبل عليه ، وهو يشعر مع ذلك شعورا عميقا بالخوف منه

ملأ هذا الشعور بالخوف نفس روديس . فمضت تنظر الى ديميتريوس وهى ترتجف

لم تدر ماذا أصابها ! لم تدر اين هى ! أحست كأن سلطانها على نفسها يفلت بغتة منها ويهزأ بها . أحست كأنها مأخوذة ومساوبة ، وكأن هذا الرجل قد غزاها . بل احست كأنه قد خالسها وهى خالية ، وانقض عليها ، واحتواها ، ونفذ فى غفلة عنها الى صميم احشائها !

وأرادت أن تصرخ وتنادى تيمون ولكن ديميتريوس ابتسم لها ، ثم دنا منها ، ثم قال فى صوت ساكن عذب وهو يشير الى المقعد ويأمرها بالجلوس :

— أن تيمون لن يعود ! ولن يحمل الينا والسفاه خمرا !

فصاحت وهى ما تفتأ تحدق فيه :

— والى اين ذهب ؟

فأجاب ضاحكا :

ـ أتؤثرين أن يعود هو وانصرف انا ؟... اتريدين ؟
وهم بأن يتحول صوب الباب . ولكنها عادت نحوه ، وامسكت به ، وقالت وهى تتأمله :

ـ انا لم اعرفك . لم ارك ابدا . كل ما اعرف عنك انك مزارع ، وأنك أرمل ، وان اسمك ديميتريوس . فماذا تريد منى ؟ ولماذا صرفت ولدك ؟ واين هو ؟

فدنا منها ايضا ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وموج عضلاته المرنة فى كرب وضيق . ثم سدد الى المرأة نظرة ، فاتقدت عيناه الزرقاوان ، ورفت أهدابه رفيفا مختلجا ساحرا . فالتصقت به روديس على الرغم منها . فنحاها عنه فى رفق وقال فى صوت بائس خفيض :

ـ لمحتك من نافذة حجرتى وانت مقبلة ، وكنت اعلم ان ولدى يحبك . فأمرت الخادم بأن يرحب بك ويدخلك على الفور حجرة تيمون . ثم اطفأت مصباحى ، ولكنى لم انم .. لم أنم .. كنت أنا أيضا ، أنا أيضا أحبك ياروديس ! كنت احبك من زمن طويل وانت لاتعلمين . كنت اكتم حبى ولااتصور لحظة واحدة ان فى مقدورى ان أتقرب اليك وأشقى ولدى ! فلما رايتك فى بيتى ، واحسستك هنا .. هنا بجوارى ، لم استطع أن أنام . فنهضت والحسرة تنهشنى ، وتسللت فى الظلام الدامس ، وكمنت خلف هذا الباب ، وسمعت كل شىء !

فذعرت المرأة وغمغمت :

ـ سمعت كل شىء ؟

فقال فى بطء وهو يتفحصها :

ـ انت لاتحبين تيمون ، أنت تريدين انقاذ نفسك وتحقيق مطامعك ! انت فى الحق خليقة بأن تصبحى زوجة امير ، فأنا ، انا الرجل الوحيد الذى يحبك ويخلص لك ، أشعر انى متأهب لانكار ذاتى ، وبذل كل تضحية من اجلك . فلا تعتمدى على

حب تيمون يا روديس . انه فتى متردد متلون ، قد يستيقظ ضميره فيستهول الخيانة ، وقد يعصف به الحب غدا فتأكله الغيرة ، فينكر لك فجأة وينقلب عليـــك ، ويؤدى واجبه ويسلمك الى الزعيم أو يقتلك ! نعم . لقد انتصرت الآن عليه ولكنك فى الحقيقة خائفة منه وغير واثقة فيه ! لذلك اسرعت انا ، أسرعت أنا وأنقذتك . انقذتك من تيمون .. من ولدى !... انه الآن اسيرى . ولقد سجنه رجالى فى قبو البيت ، وسيظل هناك سجينا حتى تنطلقى أنت من هنا وتأمنى كل الامن على حياتك ! فاذهبى .. اخرجى حالا ، فرى من هذه القرية . الحقى بجيش العدو ،وعسناك أن تتزوجى القــائد الفارسى وتحققى حلمك ياروديس وتسعدى !

والتصق بها هو الآخر وردد :

ــ اذهبى . اذهبى .. حياتك عندى أغلى من حياتى ! وانا ، أنا سأتحمل العقاب والتضحية وحدى ! اذهبى !

فاضطربت المرأة ، ونظرت اليه ، ثم نظرت الى البــاب ، ثم استقرت ببصرها على الكهل الساحر . فرعها منه تهدج صوته ، وبهاء حسنه ، واتقاد رجولته . فمدت يدها . مدت يدها مستجدية ، وتمتمت :

ــ الا أستطيع ان ابقى قليلا ؟

فلمعت عينا ديميتريوس وقال :

ــ أولى بك ان تذهبى

فتطلعت اليه مأخوذة وهمست :

ــ بعد لحظة ، سأذهب بعد لحظة . لم أعد أشعر بالخوف على نفسى . ولكن انت .. لماذا تستعجلنى ؟ لماذا تريد التخلص منى ؟ أهذا هو مبلغ حبك لى ؟

فصرخ عامدا :

ــ آمرك بأن تخرجى !

فتشبثت به ، وطوقته بذراعها ، وواجهت بعينيها الظامئتين المتوسلتين سحر فتوته الخلاب . فأيقن من ضعفها ، وايقن انه فى مثل خطف البرق قد تمكن منها وصرعها . فلم يمهلها ، وانحنى فى لهفة عليها وقبلها . فانتشت المرأة ، وغابت عن صوابها . فضمها فى عنف الى صدره ، وصاح بها :

ـ كيف ... كيف يمكن ان احبك ؟ كيف يمكن ان اتزوجك والقائد الفارسي على قيد الحياة ؟ قد ينتصر فى غد فيقتلك ويقتلنى ! لا مفر .. لا مفر لنا من القضاء عليه قبل ان يقضي هو علينا ! ولا قضاء عليه الا بالقضاء على أعوانه وتوطيد سلطان ملتيادس قائدنا وزعيمنا ! فاذا كنت حقا تحبيننى ، اذا كنت قد تجردت حقا من مطامعك واحببتنى ، فتكلمى .. اجيبى . من ... من هم أنصار القائد الفارسي، وأين يختفون ؟ ولو صدقت فى اقوالك ، فاقسم ، اقسم لك بالآلهة أن اقترن بك اليوم . اليوم ياروديس .. اليوم ، ولو مزقت قلب ولدى بيدى !

فاتأدت المرأة لحظة ثم ذهب الحب بلبها فهتفت :

ـ اذن فاقرن القول بالفعل منذ الآن ، واتبع حكم تقاليدنا وطمئنى . انت تعلم ان الرجل عندنا متى عاهد امرأة على الزواج ، انتزع قلادته المقدسة التى باركها الكهنة يوم مولده، وطوق بها عنق تلك المرأة . وهكذا يظل مقيدا بها حتى يعقد له شرعا عليها . فان حنث هو بيمينه أو حنثت هى ، حقت على الغادر لعنة الآلهة ! فأنا لن احنث يا ديميتريوس بيمينى . لن استهدف للعنة الآلهة . سأخون حلمي ، واحطم مجدى ، واتجرد من مطامعى ، واقول لك من هم أنصار القائد الفارسى فى بلادنا . فعليك انت .. انت ، اذا كنت حقا راغبا فى قربى أن تنتزع قلادتك المقدسة ، وتطوق بها عنقى ، فتصبح منذ الآن حبيبى وزوجى ! افعل يا ديميتريوس ، أهبك كل شيء ،

واصارحك الساعة بكل شيء !

فرفع الرجل رأسه، وحدق الى الفضاء كأنه يستغفر آلهته، وقال :

ـ اليك قلادتى !

ونزع القلادة من صدره وطوق بهاعنق روديس . فاختلجت المرأة عزة وفرحا ، وانحنت عليه لفورها ، واسرت اليه وهي تضمه وتزفر :

ـ الخونة الذين تبحثون عنهم ، أنصار القائد الفارسي مردونيوس ، هم رؤساء فرقة الحرس ! الفرقة التى تحيط على الدوام بموكب الزعيم ملتيادس ! انهم يجتمعون كل ليلة فى منزل كبيرهم « سولون » وهم الآن هناك . أتفهم ؟ انهم يتآمرون الآن من هناك !

فومضت عينا ديميتريوس وجمد . وظل جامداً فترة كأنما قد ضربته صاعقة . ثم دفع المرأة عنه فى حركة عنيفة ، ونصب قامته بغتة ، واتجه صوب خزانة اخرج منها لفافة ورق وقلماً، وشرع يكتب على جزء من اللفافة بضعة أسطر . ولما فرغ من الكتابة ، اندفع نحو الباب وصفق يدعو رجاله الذين كانوا قد غافلوا تيمون وكبلوه

ودخل الرجال الخمسة المسلحون فدنا ديميتريوس من احدهم وقال فى صوت باتر :

ـ عليك ان توقظ الزعيم ملتيادس فى الحال ، وتسلمه هذه الرقعة يدا بيد حذار ان تفقدها والا اهلكتك !

فانحنى الرجل صامتا وتناول الرقعة وخرج . فالتفت ديميتريوس الى الرجال الاربعة وقال :

ـ اما انتم فاذهبوا الى البهو الكبير ، ومدوا المائدة ، واعدوا الصحاف والاكواب ، وأجلبوا كل ما فى القبو من لحم مقدد ثم امكثوا فى البهو الكبير حتى أصدر اليكم أوامرى

فانصرفوا جميعا فى أثر صاحبهم ، وانثنى ديميتريوس على روديس وصرخ :

ـ سيكون الكل هنا بعد لحظات ! الزعيم ملتيادس ،وفرقة الحرس ، ورئيس الكهنة ايضا ! وسأقيم لهم فى البهو الكبير مأدبة حافلة . وستكونين انت ، انت يا روديس زينة هذه المأدبة وبهجتها ! لماذا ترتعدين هكذا؟ اتخافين على حياتك ؟ أنسيت اني قد أصبحت زوجك ، واني ما تزوجتك الا لانقذك ؟ ابقى هنا ساكنة مطمئنة .. لحظة فقط . سأعود اليك بعد لحظة

وابتسم ابتسامة خفيفة ظافرة . ثم اوقد شمعة صغيرة ، ومرق من الباب ،وجاس فى حجرات البيت المظلمة ، ثم تسلل فى سرداب طويل تصطفق خلفه مياه النهر المجاور للبيت . ثم توقف فجأة تجاه حجر ضخم ينهض حائلا بين مياه النهر والسرداب المتصل بالبهو الكبير الذى ستقام فيه المأدبة للخونة ثم نفذ من السرداب الى البهو ونادى احد رجاله وهمس فى اذنه بضع كلمات ، وهو يومىء باصبعه الى الحجر الضخم ويهز راسه مبتسما

وكر راجعا الى روديس . وما ان أبصرته المراة حتى تشبثت به وصاحت وهى ترتجف :

ـ أين كنت ؟ ومتى سيصل الزعيم ؟

فأجاب ديميتريوس فى هدوء :

ـ لكل شىء ميقات !

وطوقها بذراعه ، وفتح بابا جانبيا فى حجرته،ودخل فى صحبة المرأة الى البهو الكبير حيث كان رجاله يعدون معدات المأدبة

وانقضت فترة طويلة ، ثم ماج الجو بغتة ، وتصاعدت أصوات مشوشة مصحوبة بوقع حوافر جياد . فاسرع الرجال الخمسة وفتحوا باب الصدر على مصراعيه. وتقدم ديميتريوس متمهلا ، وتهيأ لاستقبال ضيوفه وهو يبتسم

ودخل القائد الزعيم ملتيادس متبوعا برئيس الكهنة وفرقة الحرس . وما كاد أفراد الفرقة يبصرون روديس حتى اجفلوا وانعقدت السنتهم . أما الزعيم فلم يتلفت واتجه من فوره نحو ديميتريوس . وكان القائد الزعيم رجلا مديد القامة عريض الصدر ، واسع الحدقتين ، غائر الخدين ، يتقد وجهه الشاحب المتوتر القسمات عزما وقوة ، وتنبعث من عينيه السوداوين الحادتين ومضات خاطفة وثاقبة ، تشيع فى النفس مزيجا غريبا من الرهبة والاعجاب والحب

وعانق مضيفه عناقا حارا ، وهم بأن يسأله عن السبب الخطير الذى استوجب هذه الدعوة العاجلة فى مثل هذه الساعة من الليل . وعندئذ لمح روديس . لمحها واقفة فى احدى زوايا البهو ساهمة جامدة كأنها تمثال . فتراجع مذهولا ، ونظر الى ديميتريوس متعجبا مستفسرا ، ثم جمح به الغضب لاول مرة ، فانقض على روديس ، وامسك بها من كتفها ، وطفق يهزها هزا عنيفا ، ويردد فى صوت ملؤه الحنق والبغض :

ـ انت .. انت هنا ؟

فقال ديميتريوس :

ـ انها زوجتى ! كف يدك عنها لحظة يا مولاى ودعنى اتكلم !

فبهت الزعيم ورئيس الكهنة . ولكن ديميتريوس تقدم فى ثبات ، واشار الى منصة عالية واردف :

ـ تفضلا بالجلوس هنا

ثم قال لفرقة الحرس :

ـ وأنتم مكانكم هنا ! اجلسوا جميعا . وسأبدأ أنا الحديث ريثما يجيئكم رجالى بالطعام والشراب . فاسمعوا ..

ووثب بروديس ، ودفعها الى وسط البهو دفعا ، وصرخ وهو يحدق اليها ، ويرمق من طرف جانبى أفراد فرقة الحرس :

ـ أليس هؤلاء هم أنصار القائد الفارسى مردونيوس ؟

اليسوا هم الذين يتآمرون على جيشنا ، ويسعون لتمكين الأجنبي من سحقنا ، والاستئثار بحكم البلاد ؟ اجيبي ..

فقالت روديس فى سكون :

ـ انهم يعرفونني ! وانا .. انا التي كنت أتلقى المال من القائد الفارسي ، وابعث به اليهم ! ليس فى وسعهم ان ينكروا !

فجحظت عينا الزعيم ، وارتجف رئيس الكهنة ، واضطرب أفراد فرقة الحرس ، وتلفتوا نحو الابواب مذعورين . فصاح بهم ديميتريوس :

ـ الابواب مغلقة ، ورجالى مسلحون ، وهم يحرسونها ! . لقد وقعتم فى الفخ ، ولا أمل لكم فى النجاة ! اعتقدتم انكم ذاهبون الى وليمة ، فجئتم عزلا من السلاح . فأنتم الآن فى بيتى أسرى ، وحذار أن تمتد يد وغد منكم الى شخص الزعيم او رئيس الكهنة بأذى !

وتحول نحو روديس واستطرد :

ـ هذه الخائنة قد اتهمت نفسها وفضحتهم ! كان يجب أن تموت بيد ولدى تيمون كما أمرت أنت ياسيدى الزعيم . ولكن ولدي كان يحبها ، ويا للعار ، فخان واجبه ولم يقتلها . فعلمت بذلك أنا . فجن جنوني ولم اتردد . القيت القبض على ولدى وسجنته ! سجنته فى قبو البيت ، ثم تصديت للمراة ومكرت بها . اجل ، مكرت بها واحتلت عليها واغويتها ، فاحبتنى اتسمعون ؟ أحبتنى أنا ! تخلت عن الولد وتعلقت بالوالد وعشقته ! فلكى أنتزع سرها ، واعرف شركاءها ، لم اجد بدا من ان امالئها ، وأتزوجها ، وامنحها قلادتى المقدسة ، واقسمت بالآلهة ان أجنبها عقوبة الخيانة وأنقذ حياتها ! فالمجرمة وشركاؤها أمامكم . فأما الشركاء فقد أعددت عدتي للاقتصاص منهم . واما ولدى فهو فى القبو رهن اشارة الزعيم . واما هذه المراة ، هذه المراة التي تقيدت بها ، هذه المراة التي

اصبحت امام الآلهة زوجتى ، فمصيرها فى يدك أنت .. أنت يا رئيس الكهنة ! لهذا دعوتك . فاحكم الآن بما تراه . فاذا شئت أن تعفو عن خيانتها تقديرا لما أفشت من الاسرار ، واذا استحال عليك اعتراض التقاليد والشرع وفصلى عنها ، فأنا راض بحكمك ومتأهب للاقتران بها وان كنت أبغضها . اما اذا كان فى وسعك ان تحلنى من العهد الذى يربطنى بها ، وكان لا مفر لك من أن تعاقبها ، فسأنزل أيضا على حكمك لانه حكم الآلهة !

فنهض رئيس الكهنة وقال :

ــ هذا العهد باطل ، وخيانة الوطن هى خيانة للآلهة . وانه لكفر صارخ أن نعتقد أن الالهة قد تعفو عمن خانها ! الخائنة لابد أن تعاقب ! هذه المرأة لم تعد زوجتك !

فأرسلت روديس صيحة مدوية ، وتشبثت بديميتريوس كمعتوهة وصاحت :

ــ انقذنى . انا أحبك فانقذنى . كيف يمكنك أن تتخلى عنى وقد اقسمت ؟

فقال ديميتريوس :

ــ كما تخليت انت عن وطنك وعن ولدى !

فثارت ثائرة روديس وصرخت :

ــ اذن فاقتلونى . لا تعفوا عنى واقتلونى . ماذا تهمنى الحياة ، بل ماذا يهمنى عفوكم عنى وقد فقدت حبيبى ؟ لو ابقيتم على فسأغدر بكم . سأكيد لكم . سأنتقم منكم لأملى الضائع وحبى المطعون ! اقتلونى ..

فرمقها الزعيم بنظرة حقد وازدراء وقال :

ــ هذه المرأة انثى .. انها انثى وليست مواطنة ! انها لم ترتدع ! ومجرد تفكيرها فى أن تثأر من وطنها لخيبة حبها يحتم علينا القضاء عليها !

فقال رئيس الكهنة :

ـ فلتبق اذن هنا هى وأصحابها . وسيبعث الزعيم من فوره برجاله ينفذون فى الجميع حكم الاعدام قبل مطلع الفجر !

فجثا ديميتريوس عند قدمى رئيس الكهنة وقال :

ـ اذنك ، اذنك ياسيدى بكلمة واحدة . لماذا نعدم هذا النفر الوضيع فنلقى فى روع الشعب ، ونحن على أبواب معركة فاصلة ، ان بين صفوفنا خونة ما رقين ؟ أليس من الافضل لنا أن يتم العقاب خفية وفى سكون بحيث يكون فى نظر الناس قضاء من الآلهة وقدرا ؟

فتمتم الزعيم :

ـ وماذا فى نيتك أن تفعل ؟

فصاح ديميتريوس :

ـ أنا الذى دبرت المكيدة وأنا الذى سأتولى القصاص ! فأرهفوا أسماعكم واصغوا الى . كل ما أملك من حطام الدنيا هو هذا البيت ، والبيت قريب من النهر كما تعلمون . ولقد عزمت . . عزمت بعد أن ننصرف نحن من هنا ان أطلق على البيت مياه النهر واغرقه ! اجل . سأغرق البيت بمن سيبقى فيه ! وهكذا أنقذ وحدة شعبنا ، واقضى على هذه العصابة الغادرة ، فلا يقال أن انسانا واحدا من أمة اليونان كان خائنا !

فاقشعر بدن روديس ، وارتعد رجال الحرس هولا وفزعا، ودنا الزعيم من ديميتريوس وجذبه من ذراعه فجأة وقال :

ـ ولكنك سجنت ولدك فى القبو ، والقبو كما أعلم بعيد عن مياه النهر . فهل تريد ان تقتل هؤلاء وتنقذ ولدك ؟

فصاح ديميتريوس مستنكرا :

ـ لا رحمة لخائن ، سأرسل فى طلب ولدى ، وسيلقى الساعة نفس المصير !

وتلفت كمن يثب ، ونادى أحد اتباعه وهم بأن يأمره

باستدعاء تيمون . ولكن الزعيم رده باشارة وقال :

ـ دع ولدك الآن حيث هو .. يجب أن اسمع دفاعه قبل ان أحكم عليه !

والتفت الزعيم الى روديس ورجال الحرس ، ورمق الجميع بنظرة شزراء ، وأردف صارخا :

ـ نفذ ... نفذ خطتك ياديميتريوس !

ونهض متجها نحو باب الصدر يتبعه رئيس الـكهنة فانخلع قلب روديس ، وطاش صوابها ، واندفعت مع أفـراد فرقة الحرس خلف الزعيم ، وترامى الكل عند قدميه باكين متضرعين متوسلين . ولكن ديميتريوس أهاب برجاله :

ـ ردوا الخونة على أعقابهم وأوصدوا الابواب . واوقدوا المشاعل ، ثم اذهب انت ياكريون ، وارفع الحجـر الضخم ، واطلق من السرداب مياه النهر على البيت !

وصدع الرجـل بالامر واختفى ، بينما استـل زملاؤه خناجرهم ، وانقضوا على الخونة ، ودفعوهم الى وسط البهو دفعا ، وأغلقوا عليهم الابواب

وما أن خرج الزعيم ورئيس الكهنة وديميتريوس الى حديقة البيت ، حتى ارتفعت صرخات من البهو الكبير حانقة وحشية يائسة . ثم انسابت المياه فى بطء الى الحجرات ، ثم تدفقت ، على البهو الكبير وهدرت هديرامروعا مختلطا بالصياح والانين. ثم غمرت البهو كله ، ونفذت من مساربه ، وسالت على أرض الحديقة

وانقطع الصراخ بعد لحظات ، وتراقصت فى الظلمة أضواء المشاعل . فنظر الزعيم الى الحجرة الغارقة ، مثـلج القلب مرتاحا وهتف :

ـ المجد لك ياديميتريوس ! سننتصر ! ومادمت قد قضيت على الخونة ، فالنصر فى هذه المعركة أصبح مكفولا لبلادك !

وابتسم القائد الزعيم ابتسامة مشرقة واثقة . ولكنه سرعان ما قطب حاجبيه وقال !

ـ والآن فلنذهب ، ولنطلق سراح ولدك . سيتبعني الى قصري ، وساحاكمه صباح الغد !

وانطلق الجميع ، واتجهوا الى مؤخرة البيت ، ثم هبطوا الدرج الى القبو ، وفتحوا بابه ودخلوا

ولكن أضواء المشاعل لم تكد تصوب الى جوف القبو المظلم الرطب السحيق ، حتى تراجع الكل مستهولين وملكهم الذعر

شاهدوا تيمون منطرحا على الارض ، موثقا بالحبال ، مندلع العينين ، متقبض التقاطيع ، تتلوى شفتاه فى حركة متشنجة غريبة ، ويتصبب العرق من جبينه ، وبطفر الزبد من شدقيه، وترف يده اليمنى رفيفا متعاقبا متهافتا كأنها تجاهد لتطلب النجدة والغياث . فاستغرب ديميتريوس منظر ولده ، وانحنى عليه ممزق القلب لوعة وشفقة ، وصاح به وهو يحل وثاقه :

ـ ما بك ؟ لم يصبك رجالى بأى أذى . فكيف انهارت قواك بمثل هذه السرعة ؟ ! انهض

فتحامل تيمون على نفسه . وأجال الطرف حوله فى شرود . وعندئذ فقط تنبه . تنبه وأبصر الزعيم . فتحول نحوه ، وزحف اليه ، ثم أكب فى لهفة على يديه يلثمهما ، وقال فى صوت متهدج متحشرج والدموع تنهمر من عينيه :

ـ سامحنى . سامحنى يامولاى ! لقد خنت واجبى ، ولكن ضميرى استيقظ ومزقنى . فلم أطق حمل عاري ، وعاقبت نفسى بيدى ! وكانت الغادرة روديس تحمل قارورة سم ،وكنت قد انتزعتها منها لأنقذها . فلجأت الى هذا السم مختارا وكفرت به عن ذنبى ! فسامحنى !

وسقط الشاب على الارض متهالكا ، وانتفض انتفاضا

عنيفا كأنما قد غشيته نوبة صرع . ثم هدأ فجأة ، وتطلع الى والده ، وأغمض عينيه وهو يتأوه ، ولفظ النفس الاخير .
فشق ديميتريوس جلبابه وصرخ :
ــ ولدى ! ولدى !
وارتمى على الجثة كمخبول وأجهش بالبكاء . فمال عليه الزعيم ملتيادس ، وسكن من روعه جاهدا وانهضه ، ثم نزع مئزره وغطى به الجثة ، ثم حنى رأسه وتمتم بضع صلوات . ولما فرغ من صلاته اتجه نحو رئيس الكهنة وقال :
ــ كان تيمون خليقا بوالده ، لقد ضعف وخان ولكنه ندم وكفر عن ذنبه بتضحية حياته ، فلنكرم فيه يقظة الضمير والقوة ، وليدفن غدا باحتفال دينى وعسكرى مهيب !
والتفت الى الكهل المحطم وأردف :
ــ انت تابعى وملازمى منذ الساعة ياديميتريوس !
وفتح الزعيم ذراعيه ، وضم الوالد البطل الى صدره . ولكنه لم يستطع أن يغالب عواطفه ، فأشاح بوجهه الصارم ، وانفجرت من عينيه الدموع !



نحو المجد

فى مساء ذلك اليوم الساكن الهادىء . وقبل نشوب معركة « ماراتون » بثلاثة أيام . كان الشريف اليونانى « هرمس » عمدة قرية ماراتون ،وأولاده الشبان الثــلاثة ، مجتمعين فى احدى حجرات بيتهم يتشاورون فى أفضــل خطــة يمكن أن يأخذوا بها للنزول على أمر قائدهم ملتيادس ، والتسلل الى صفوف العدو ، واشعال النار فى احدى سفنه الكبرى المرابطة فى ميناء ماراتون

ولم يكن فى وسع العمدة الكهل هرمس أن يغامر بمسئوليات منصبه ، وينهض الليلة بمثل هذا العمل الخطير ، مستهــدفا لموت محقق ، فعهد بالمهمة الى ابنه الاكبر « شالكاس » ، رغم اعتراض ولديه الآخرين ، اللذين تمنى كل منهما لو وقع اختيار والده عليه

فبعد أن أفضى هرمس بتفاصيل الخطة الى ابنــــه الاكبر ، جذبه من كتفه ، وقاده الى تمثال صغير للاله أبولون ، وطلب إليه أن يؤكد تضحيته بقسم . فحنى الشاب رأسه ، ورفع ذراعه ، وأقسم بالاله العظيم أن يذعن للامر ، ويكتم السر ، وانه يقبل التضحية

وكان يجب على الشاب أن يتنكر فى زى جندى فارسى هرب من الاسر ، وان ينطلق هذه الليلة فى الظلام الدامس ، مزودا ببعض المواد المحرقة . فيزحف على بطنه ســاعات طويلةحتى يبلغ السفينة ، فيلوذ بحراسها ، ويصعد اليها ، ويضرم فيها النار ، ويموت مع جنودها وملاحيها وربانها أمير البحر الفارسى الشهير باسم هزاد

وكان الشاب يؤدى القسم ، واخواه ينظران اليه فى خشوع واعجاب ، وامه السيدة الشريفة الرائعة الجمال « هيلينا » تنظر اليه من خلال أهدابها الوطفاء ، وتهز رأسها هزا خفيفا ؛ وتبتسم ابتسامة آسفة مشفقة ، وهى تعض بأسنانها البراقة على شفتيها الحمراوين الناتئتين

ولما فرغ الشاب من تأدية القسم ، تحول نحو أمه وقبلها . فقبلته بدورها ولم تتكلم . فاستغرب الكل جمودها . ولكنها غالبت نفسها ، وكبحت عواطفها ، وأعربت لابنها الاكبر عن اعجابها بوطنيته الصادقة . ثم ضمته الى صدرها ، وقبلته قبلة ثانية حاولت جهدها أن تجعلها حارة مشبوبة

وتفرق الجميع ، وذهب العمدة هرمس الى مقر منصبه . واستدعى الاخوة الثلاثة زوج عمتهم المهندس المعمارى « أوريون » وانطلقوا فى صحبته الى المعبد المجاور لبيتهم ، حيث تحتم التقاليد على الاخ الاكبر أن يؤدى صلاة قصيرة تهبه العزم والقوة ، قبل اقدامه على التضحية والفداء

أما الام فقد لبثت فى مكانها ساهمة شاردة . ثم تحاملت على نفسها فجأة ونهضت . نهضت وغلقت أبواب الحجرة ثم عادت وارتمت على مقعد ، ونظرت فى مرآتها ، ثم انتزعت من صدرها قلادة يتدلى منها شبه قلب من ذهب ، سرعان ما فتحته وتأملت فيه رسما لرجل ، وطفقت تقبل الرسم ويدها ترتعش ، وأعضاؤها تختلج ، وعيناها تلمعان !



وفى تلك اللحظة نفسها كانت « ديميترا » اخت زوجها ، قابعة فى غرفة بعيدة من غرف البيت ، تتأمل هى أيضا رسما آخر ، عثرت عليه فى أحد أدراج خزانة صغيرة ، اعتاد قرينها المهندس المعمارى « اوريون » أن يضع فيها رسومه وأوراقه ورسائله

وكانت الشكوك قد ساورت ذهن ديميترا منذ أسابيع . كانت تحس احساسا قويا عنيفا أن هناك علاقة أثيمة منكرة تجمع بين قرينها أوريون ، وزوجة شقيقها الحسناء الفاتنة هيلينا . فاصطنعت لخزانة اوريون مفتاحا ، وتمكنت فى مثل لمح الطرف من معرفة كل شيء

وهاهى ذى ديميترا تحدق الى الرسم وترتجف . بل هاهى ذى تنعم النظر فى أوراق زوجها ورسائله ، وتقرؤها ، وقلبها المطعون يكاد ينزف دما

الرسم فظيع ، وقد أبدعه ولا شك فنان ماهر ، الرسم يمثل قرينها أوريون ، وزوجة شقيقها هيلينا متعانقين عناق الشهوة الفاضحة ، والحب المحرم ، والهوى الاثيم

أما الرسائل فأمرها كان أعجب وأخطر وأفظع ! لم تكن رسائل حب بين العاشقين فحسب . بل كانت فوق ذلك رسائل نقمة وتمرد على القائد ملتيادس ، وخيانة للأمة والوطن !

كانت هيلينا تقول فى رسائلها لعشيقها انها معجبة بحضارة الفرس أعداء بلادها ، وأن الفرس يجب أن يقهروا اليونان ليمدنوها ، وان الحرب ضد الفرس لا جدوى منها ، وأن على عشيقها اذا كان حقا يحبها ان يسرع فيتصل بالوجيه اليونانى « هيباس » الذى يتزعم ، فى الجبال ، حركة التفاهم مع الاعداء ، وأن يسانده فى كفاحه ، بغية عقد صلح يجنب اليونانيين ويلات الحرب ، ولو قضى القضاء المبرم على كل أمل لهم فى الحرية والاستقلال

وادركت ديميترا من فحوى الرسائل ان زوجها أوريون قد عمل بنصيحة عشيقته ، وأنه اتصل فعلا بالخائن هيباس . فضمت يدها على الرسائل كأنها تقبض بها على عنق عدو لتخنقه

وامتقع وجهها ، وغلى الدم فى عروقها ، واصابها من فرط الحنق والغيرة والاستنكار والذعر شبه خبال . كيف ؟ ايخونها زوجها مع امراة شقيقها ، ثم يختم الهوى على بصره فيخون أيضا بلاده ، وهى بين الموت والحياة ؟ وهيلينا ؟ هيلينا ؟كيف استحلت لنفسها ان تسلب رجلا هو قرين شقيقة زوجها؟كيف أقدمت على هذا العمل المروع وهى أم لثلاثة ابناء ؟ نعم . كل كلمة من كلماتها تدل ابلغ الدلالة على أنها هى التى أغرت أوريون وهى التى فتنته ، وهى التى افسدت خلقه ، ولوثت ضميره ، وقتلت فيه روح الزوج المخلص الوفى ، وروح الوطنى الصادق النزيه !

وتدفقت الخواطر فى ذهن ديميترا ، ولم تعد تدرى ماذا يجب عليها ان تفعل . انها تستهول العواطف التى تشعر الآن بها . انها تكره نفسها . انها تحس بالرغم منها أن قلبها مايزال يصبو الى زوجها . ولكن كيف يمكنها أن تصمت ؟ كيف يمكنها ان تتحمل ؟ كيف يمكنها ان تخون هى أيضا ؟ أفى مقدورها ان تغلب فى قلبها نداء الحب على نداء الواجب ؟ أفى مقدورها أن تصفح عن خيانة زوجها لأمتها وبلادها ؟ وهل فى وسعها فوق ذلك أن تغض الطرف عن خيانة ثابتة مزدوجة ومروعة ارتكبتها زوجة شقيقها ؟ كلا . هذا فوق طاقتها . هذا خزى يعافه ضميرها ! الواجب يقتضيها أن تتكلم ، أن تصارح ، أن تجهر بالحقيقة كلها . والا غامرت بحياة شقيقها ، وحياة ابنائه الثلاثة ، وحياتها هى أيضا

وملكتها الفكرة ، واستبدت بها . وطغت عليها . فنهضت من فورها ، ودست الرسم والرسائل فى صدارها ، واستجمعت قواها وتقدمت بخطى ثابتة نحو الجناح الايمن من البيت حيث يقيم شقيقها

وكان الرجل قد عاد من مقر عمله . وانكب على دراســة خريطة صغيرة تعين موقع المعركة المنتظرة . فأوصدت ديميترا الباب ، وأحكمت رتاجــه . ثم دنت من شــقيقها ، وأخرجت الرسم والاوراق من صدارها ، ودفعت بها اليه وقالت :

ــ انظر .. انظر واقرا !

فتطلع اليها وتناول منها الرسم والرسائل وهو مبهوت . فرددت :

ــ انظر واقرا !

فلم يكد يلقى على الرسم نظرة حتى جحظت عيناه وجمد . ثم تنبهت حواسه واستضاء فكره . فأكب على الرسائل ، وشرع يقرأ ، وبصره الحاد يلتمع ، ووجهه المحتقن يتغضن وينقبض ، وأعضاؤه كلها تختلج اختلاجا عنيفا ، ثم تتراخى فى انهيــار طارىء ، كأنما قد أصابها شلل

وحاول ان يتكلم ، ولكنــه أحس انه يختنق . فنــدت عنه صرخة ، وانهمرت من عينيه دمعة

لم يستطع أن يصدق . لم يستطع ان يتصور . فظــل تائها شاردا مذهولا يحدق فى الرسم والورق ويرتجف !

وارتمت ديميترا على مقعد ، وقالت فى صوت غائر أجش :

ــ لم يسعنى أن أصمت ! المسألة لا تتعلق بنا وحــدنا بل تجاوزنا الى ما هو اخطر واعظم ! لقد خان كل من زوجــك وزوجى عهد الزواج وعهد الوطن ! فأنا أضع مصــيرهما بين يديك ، فاحكم .. احكم الآن بما يمليه عليك ضميرك !

وصمتت وهى تلهث . فأطرق الرجل منسحقا . ولبث مطرقا وهو يزفر . ثم ارسل نفسا طويلا . ورفع راسه فى بطء وقال بعــد فترة وعينــاه المتقرحتــان مصوبتــان الى شقيقته :

أما زلت تحبين زوجك ياديميترا ؟

فهتفت :

ـ لقد ملأ الحقد قلبي فلم يعد فيه للحب أي مجال ! انا أشعر أن عقلي أصبح أقوى من عواطفي ، وواجبي اقوى من حبي . ولو ان هذا الحب كان قد خنق وطنيتي لما سعيت اليك وصارحتك بكل شيء ! يجب .. يجب أن نقتص من المجرمين بأنفسنا ، والا فقد يعلم بأمرهما القائد فتحوم الشبهات حولنا نحن أيضا ، فنلوث ونتهم ونستهدف جميعا للموت والعار !

فقال هرمس ، وهو يتلوى :

ـ انت على حق ! لن اشفق ابدا ! لن اتسامح ! ولن أمرغ جهاد حياتي كله في التراب ، ولن أموت مجللا بالعار حرصا على زوجة زانية ومواطنة خائنة ! وما دمت انت قد وضعت واجبك فوق حبك ، ورأيت أن ضميرك الوطني يقتضيك الاقتصاص من زوجك ، فسأقتدي بك انا ايضا . ولكن .. ولكن امرأتي والدة . انها أم ، أم لثلاثة أبناء . فكيف يمكنني أن أعاقبها بدون علم منهم ؟ ماذا يمكنني ان اقول لهم لو غافلتهم وقضيت عليها؟! أية حياة ستكون حياتهم لو حرمتهم فجأة ، وباجراء تعسفي شخصي ، من عطف امهم وحنانها ! يجب ان يعرفوا كل شيء ! أتسمعين ؟ يجب أن أصارحهم بكل شيء ! يجب أن أكاشفهم بعاري وعارهم ، واشركهم معي في الحكم على أم تنكرت لاقدس واجباتها ، وأصبحت زوجة زانية ومواطنة خائنة !

وارتعد الرجل ، وردد في عنف :

ـ يجب أن أصارحهم . يجب أن يكونوا هم القضاة ماداموا هم الضحايا ! يجب أن تحاكم امرأتي على مشهد منهم ، وكذلك زوجك يا ديميتر ! !

فحنت المرأة راسها مشيرة بالايجاب . وعندئذ سمعت في الخارج جلبة واصوات . فهب الرجل واقفا وصرخ :

ـ ها هم • لقد عادوا من المعبد وفى صحبتهم أوريون • سأناديهم وسأفصل الساعة فى الأمر دون تردد !

واندفع كالمخبول ، ونادى أبناءه وزوج شقيقته ، وارسل الى امراته يأمرها بأن تلزم حجرتها حتى يدعوها اليه • ثم غلق الابواب ، وطلب الى الجميع أن يجلسوا، والتقط أنفاسه ، وشرع يتكلم !

وكان ابناؤه الثلاثة يستمعون اليه ، وينظرون فى الرسم والرسائل ، وقد امتدت اعناقهم واندلعت عيونهم ، وتعاقبت انفاسهم ، وملكتهم دهشة مستهولة مشمئزة ، يشوبها غضب مستنكر ، وحقد هائل كظيم . أما اوريون فقد تصبب العرق من جبينه ، وشحب وجهه شحوب الموتى ، وظل واقفا عن بعد ينقل الطرف فى امرأته واهلها ، ويرتعد كريشة فى مهب الريح !

وبعد أن أتم هرمس قراءة بعض الرسائل ، التفت الى أولاده الثلاثة وقال وهو يهدر :

ــ البينة أمامكم ، والجريمة المزدوجة اقترفتها أمكم ، واشترك فيها هذا الرجل الذى هو زوج عمتكم . ان امرأته قد فضحته ، وتهيأت لتأدية واجبها . فهل تترددون انتم فى تأدية واجبكم ؟

فلم يتمهل الابن الاكبر شالكاس ، واندفع نحو باب الصدر وفتحه وصرخ مناديا أمه وهو يرتعش

ودخلت هيلينا شامخة الرأس محلولة الشعر ، متقدة البصر• ولكنها لم تكد تتقدم الى وسط الحجرة وتلقى على الرسم والرسائل نظرة ، حتى اندفق الدم الى محياها ، وانكمشت ولم تتكلم . فصاح بها ابنها الاكبر وهو يومىء الى الرسم والورق ويوشك ان ينقض عليها :

ــ أتنكرين ؟

فغمغمت وهي تتراجع :

ـ لا أنكر شيئا ! انا أحب هذا الرجل وهو يحبني • وكلانا فوق ذلك ؤمن بأن بلادنا ضعيفة ، وان استقلالها محال ، وان لا خلاص لها الا اذا وضعت السلاح ، وتحالفت مع الفرس ، واذعنت للواقع ، وسلمت للأقوى !

فجن جنون شالكاس وصرخ :

ـ افجور وخيانة ؟! أفي اللحظة التي تقدم فيها بلادك على معركة رهيبة وتوشك أن تطاول النصر ، في اللحظة التي اعتزمت فيها انا وولدك أن أغامر بشبابي وحياتي وأذهب فأضرم النار في احدى سفن الاعداء ، وأموت شهيدا من أجل وطني ، في هذه اللحظة العصيبة اراك أنت ، أمي ، تشمخين وتستكبرين، وتجاهرين بخيانتك المزدوجة دون ما وازع من خلق او ضمير؟

فقالت الام في سكون :

ـ وما جدوى الكذب والنفاق ؟ اقتلوني اذا شئتم . وحسبي من الحياة اني قد احببت وسعدت وعشت !

فنهض ليزياس الابن الثاني وصاح وهو يرجف :

ـ هذه الانانية الغليظة القاسية ، هذه الانانية الوقحة المتحدية ، هذه الانانية الجنائية المنكرة ، تستحق منه ولا ريب اقسى عقاب • وانا ، انا ولدك ايتها السيدة سأقتص بنفسي لشرف اسرتي وشرف بلادي من خليلك وشريكك في الجريمتين: الزنا ، وخيانة الوطن !

فصرخت هيلينا :

ـ ماذا تقول يا ولدي ؟

فقالت ديميترا على الفور :

ـ وانه لحكم عادل وأنا أرحب به !

فتقهقرت هيلينا ملتاعة ، وقالت :

ـ لا . لن يموت الرجل الذي أحبه بيد ولدي !

فصاح زوجها :

ـ اذن نناولها السـلاح ياليزياس ولتعطه هي لعشـيقها الخـائن

فجثت هيلينا على الارض ، وقالت ودموعها تنهمر :

ـ اني اذا قبضت على هذا السـلاح فلن أغمـده الا في صـدري !

فقال الابن الثاني :

ـ اذن فسأعرف أنا كيف أقوم بواجبي

فاندفعت المرأة نحوه ، وطوقته بذراعيها ، وصاحت وهي تلثم يديه وتقصيه جهدها عن عشيقها :

ـ لا .. لا تقتله يا ليزياس ..

ولكن أوريون الذي كان قد فقد الامل في كل شيء وآثر أن يقضي على نفسه بنفسه مختـارا من أن يجبن أمام عشـيقته ويقتل قتلا ، أسرع ولحق بها . وفي مثل لمح الطرف ، وقبل ان يتنبه ابنها او أخواه أو والده او ديميترا ، اختطف الخنجر من ليزياس ، والقى نظرة وداع على هيلينا ، ثم أغمد النصـل في عنقه ، وهوى على الارض صريعا يتخبط في دمه

وأرسلت هيلينا صيحة مدوية ، وظلت ديميترا جـامدة كتمثال . ورمى الابناء الثلاثة ووالدهم جثة المجـرم بنظرة ملؤها الزراية والحقد ولم يحفلوا بها

وانثنى هرمس الى زوجته ، وقال في صوت حاد المقاطع باتر النبرات :

ـ اليك خنجري وتشجعي .. عاقبي نفسك بدورك وكفري انقذي من صورتك في نفوس ابنائك ولو بقية من عزة وكرامة وكبرياء

فترنحت هيلينا وصرخت كمعتوهة :

ـ لا ... لا أريد أن أموت !

فغشى الدم وجه زوجها ، وقدح الشرر من عينيه ، وارتمى عليها ، وهم بأن يقتلها بيده . وعندئذ ، وقع شىء غريب ، شىء مباغت، شىء لم يكن أبدا فى الحسبان

تقدم الابن الاصغر « سولون » الذى لم يكن قد تفوه حتى تلك اللحظة بكلمة ، وأمسك بذراع والده ، وأنهض المرأة المتداعية المحطمة ، وقال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ــ هذه المرأة هى أمى . وأنا ابنها الاصغر ، وهى أحب الناس وأعزهم وأغلاهم الى نفسى ! ومع ذلك فأنا لا أريد منكم أن تصفحوا عنها ! لا اطلب منكم أن ترحموها ! بل التمس فقط ان تدعونى أخاطبها لحظة واحدة قبل ان تموت !

فصاح الوالد :

ــ اتضعف يا سولون وتحرجنى ؟

فقال الشاب :

ــ أريد أن ابرىء ذمتى ! أنا أنشد القوة لا الضعف يا والدى فصبرا . تقدمى يا أماه ... انعمى النظر فى كلامى وارهفى السمع وتأملى . لقد خنت زوجك فأنكرت وفاءه ، وجحدت تضحياته ، ومزقت كرامته ، وسممت البقية الباقية من حياته ثم أذللت أولادك ، وخلفت فى نفوسهم وصمة عار لا تمحى ... ولم يكفك هذا ، فأمعنت ايضا فى غيك وخنت بلادك واتصلت بأعدائها ! وانا مؤمن بانك لو كنت عامرة القلب بحب وطنك ، ما سولت لك نفسك ابدا خيانة زوجك . لأن من يخلص حقا لوطنه لابد أن يخلص ايضا لشرفه وعرضه فهذه الوطنية المقدسة ، وطنية الوفاء الكامل ، الوفاء الكامل للارض التى أوجدتنا ، ولعرضنا الذى هو رمز كرامتنا ، هذه الوطنية هى التى أريد أن أضرمها الآن فى صدرك يا أماه . هى التى أريد أن أعلمك اياها ، عساى أن أرد اليك اعتبارك فى نظر نفسك ، واهبك شجاعة العزم ، وشجاعة التفكير ! ولقد حدثتك عن

خيانة العرض وما يعقبها من شقاء ، وساحدثك عن خيانة الوطن وما تجره من كوارث .. كيف تنادين بالتحالف مع العدو ؟ كيف تزعمين ان تحالفنا مع العدو ينقذنا ؟ اننا لو اعرضنا عن قتاله وسلمنا ، اصبح هو الاقوى ، فتنكر لنا ، واستباح حقوقنا ، وفرض سلطانه علينا ، وسامنا فى غدر وخبث شر ضروب الخسف والهوان ! اليونان امة متحضرة يا أماه ، وليست فى حاجة الى وصى يمدنها ! نحن ورثة المصريين العظماء ، عنهم قبسنا النور ، ومنهم تناولنا المشعل ، وفي ضوئهم منحنا العالم فلاسفة وعلماء وشعراء ، فابدعنا حضارة وخلقنا مدنية ! فكيف نستحل لانفسنا اليوم ان نتراجع ونجبن ونغمد السلاح ، وندع تراثنا الانسانى المجيد ينسحق ويموت تحت سنابك خيل الفرس ؟ الواجب هو ان نقاتل يا اماه ، نقاتل من اجل ازدهار حياتنا ، نقاتل من أجل نمو تراثنا ، نقاتل من أجل اسلافنا واحفادنا . نقاتل عدونا حتى النصر . ومتى تحقق النصر ، فقد يمكن التفاهم بعد ذلك فى ظل المساواة ! هذه هى الكرامة ، وهذه هى الوطنية ! الوطنية من أجل الخلود يا أماه ! خلود روحنا ، خلود جنسنا ، خلود عبقريتنا فى العالم وفى اصلابنا من بعدنا ، ولكن الخلود محال يا أماه بدون موت ! بدون موت اختيارى خصب ، تغذيه الشجاعة ، ويذكيه الايمان ، ويلهبه البذل والتضحية ! فانبذى معتقداتك الشائنة القديمة يا اماه ، وآمنى بالوطن والعرض ، واثبتى الساعة وتقدمى ! كونى خليقة بأمتك وشعبك ، بل كونى جديرة بابنك الاكبر الذى اختار أن يموت هذه الليلة مستشهدا فى سبيل شىء أعظم من نفسه ، وأبقى من شخصه ، وأغلى من حياته وحياتنا نحن جميعا ! اطعنى صدرك بالخنجر راضية يا أماه لنستطيع برغم عارنا ، ان نكرم ذكراك ونرفع فى الملأ رءوسنا !

وتراجع الشاب وجلس . فلم تتكلم هيلينا ، ولم تتحرك ،

وظلت فى مكانها ذاهلة . لم تتقدم خطوة ، ولم تتجه نحو زوجها لم تتناول منه خنجره . بل أجالت فيمن حولها بصرا زائغا حائرا تائها ثم استقرت ببصرها لحظة على ابنها الاصغر ، ثم تحولت به صوب ابنها الاكبر ثم حدقت الى الشاب طويلا وأشرق وجهها اشراقا طارئا عجيبا ، وتألقت عيناها ، وانفرجت شفتاها ، وانسكب فجأة على كيانها كله ضوء غامر صاف قرير ..

ولوحت بذراعها بعد فترة وتمتمت :

ـ لا .. لن أموت هكذا !

فحملق فيها الكل مستغربين مستفسرين

فرددت فى عزم :

ـ لن أموت هكذا !

فلم يفهموا واشتد عجبهم ، وخيل الى زوجها انها تريد أن تحتال عليهم وتخدعهم فدنا منها حانقا ودفع اليها بالخنجر مستصرخا متوسلا . ولكنها أقصته عنها فى رفق ، ونصبت قامتها ، وقالت فى صوت واضح قاطع جهير وهى ما تزال تسبح فى حلمها وغيبوبتها :

ـ لن أقتل نفسى ! ليس هذا بعقاب ولا بتكفير !

واتسعت حدقتاها . وصرخت بغتة :

ـ لقد استيقظت ! حديث ولدى الاصغر ايقظنى وهدانى ! كنت صماء فسمعت . كنت عمياء فأبصرت . كنت ميتة فبعثت ! لن أقتل نفسى ! لن تذهب حياتى هباء ! لن اموت رخيصة والا ارتكبت خيانة ثالثة ! سأموت كما علمنى ولدى ! سأتبعه نحو الخلود الذى أراه الآن نصب عينى ! سأموت لأخلد . لاخلد فى امتى ووطنى ! هذا هو العقاب الذى يمكن أن يشفع لى ويرفعنى . وهذا هو التكفير الذى يمكن أن يخدم بلادى ويطهرنى !

وتلفتت صوب ولدها الاكبر وصاحت :

ــ لن تذهب الليلة الى هناك !

فأحاط الجميع بها ، وتألبوا عليها ، واشرأبوا اليها بأعناقهم مبهوتين • فصرخت فيهم وصوتها يدوى :

ــ انا . . انا التى سانهض بالمهمة التى وكلت الى ابنى الاكبر! انا التى سأذهب الى الميناء من فورى ! انا التى سأقتحم سفينة العدو ، وانا التى سأضرم فيها النار ! هذه الميتة وحدها هى التى ترضينى ! فصونوا أنتم أنفسكم لواجبات أجل وأخطر ، ودعوا هذه المهمة العاجلة لى !

ورفعت رأسها فى عزة وأردفت :

ــ اعطونى المواد الحارقة ! لن أجد أية صعوبة فى اقتحام السفينة ! ان ربانها الفارسى لن يشك فى أمرى . وهو يعرفنى، ويعرف انى كنت بالامس من صنائع الفرس ، ومن اتباع المارق هيباس . اعطونى المواد الحارقة وثقوا بى !

فوجم الزوج واضطرب . وهجس فى روعه ان هذا التدبير قد يكون حيلة من امرأته ، ووسيلة للتخلص والفرار . فهم بأن يتكلم ويعترض . ولكن الابن الاصغر ارتمى على امه ، وطوقها بذراعيه ، وصاح بأخويه وهو يهدر :

ــ الا تثقون فى أمكم ؟

فقال الابن الاكبر فى هدوء :

ــ دعوها ترحل ! انا واثق فيها ، مؤمن بأنها قد أصبحت الآن اما وزوجة ومواطنة !

فاندفعت اليه هيلينا وعانقته ، ثم قبلته وقبلت اخويه ، ثم انحنت ولثمت يد زوجها ويد شقيقته . فاستوقفتها ديميترا وقبلتها . فاختلجت هيلينا ، وأوشكت ان تبكى . ولكنها تمالكت نفسها ، واتشحت بمئزرها . ودست المواد الحارقة فى صدارها • ثم تحفزت ، واستنهضت قواها ، وخرجت الى الظلام الدامس ، منصوبة القامة ، مرفوعة الراس ، متصلبة

الوجه ، دون أن تتلفت او تحاول النظر مرة أخيرة الى اولادها

ولم تكد تختفى حتى اسرع الجميع وصعدوا الى سطح البيت ، وظلوا هناك صامتين ، قلقين ، متلهفين . يتطلعون الى السماء الحالكة ، ويرقبون الميناء حيث تجثم سفينة العدو

وبعد ساعات طويلة ، وقبل أن يطلع الفجر ، ترامت الى سمعهم صرخات مدوية متقطعة ، ثم انشق فجأة حجاب الليل ، ثم شوهد فى الافق البعيد لهب متصاعد ينهب فسحةالفضاء ، ثم لاحت السفينة فى ضوء اللهب المتأجج هيكلامتصدعامتداعيا ، سرعان ما ترنح وتطوح والتهمته النيران . فهتف الشبان الثلاثة هتافا مدويا متواصلا ، وانثنوا الى والدهم يشهدونه على توبة أمهم ، وصدق وطنيتها ، وعظمة تكفيرها . فالفوا الرجل يبكى .. يبكى بكاء الفرح والكبر والغفران . فتهافتوا عليه ، وهدءوا من روعه ، وقبلوه . فانحنى عليهم وتفرس فيهم باعجاب . ثم ضمهم جميعا الى صدره ، وقال لهم فى سكون وهو يشرق بالدمع ويبتسم :

ـ عودوا .. عودوا الى المعبد يا اولادى . وصلوا .. صلوا من أجل أمكم !

الرومان

الإمبراطورية الخالدة

« تقع حوادث هذه القصة أيام انحطاط الرومان ، وتمثل ماكان يجرى اذ ذاك فى قصور حكام روما وما كانت عليه الامبراطورة ميساليت نفسها من بغى وفجور . كما تمثل القصة آلام شعب ويقظة أمة . »

فى عام ٤٨ الميلادى ، وفى حى شعبى من أحياء روما ، وفى زقاق مظلم قذر مستطيل ، كان يرى الناظر حانة صغيرة كئيبة المظهر ، متصدعة البنيان ، يرقى اليها روادها من سلم خشبى علق على سوره مصباح خافت ، تتراقص أضواؤه منعكسة على جدران البيوت المحدودبة المتلاصقة ، فتبدو كأنها أشباح

وكانت الحانة غاصة فى تلك الليلة بجمهرة كبيرة من العمال والصناع وقطاع الطرق وبنات الهوى . وكانت صيحاتهم تقصف فى الجو كالرعد ، وضحكاتهم تهدر فى الظلمة كالسيل ، وشهواتهم تنطلق انطلاقا مروعا ، كأنما هى وحوش ضارية اطلقت من عقالها ، ومضت تمرح فى أجمة كثيفة بعيدة عن العالم

فالعمال كانوا يعاقرون الخمر ويرقصون ، وقطاع الطرق يلعبون الميسر ويتشاتمون ، وبنات الهوى يتسللن بين الرجال محلولات الشعر إنصاف عرايا ، يقدح من أعينهن النهمة المكحلة شرر الطمع والاغراء

وفجأة ، فتح الباب الكبير ، ودخلت منه امرأة . امرأة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، مديدة القامة فى شموخ ، ناهدة الصدر فى عزة ، وطيدة البدن فى ثبات وقوة ، يستر وجهها وشاح أسود ، ويمسك بذراعها شاب مفتول العضل رائع الجمال

واتجهت المرأة صوب احدى الموائد ، وطلبت خمرا . فجاءها

صاحب الحانة بكوبين من النبيذ ، فمالت الى رفيقهـا وهى تضحك ، ثم ناولته كوبه ،ثم تجرعت مافى كوبها دفعة واحدة، بعد ان نزعت وشاحها الاسود ، وحدقت فى جرأة الى الحاضرين

والتفت الجميع اليها ، فراعهم حسنها الباهر ، وعطـرها الغامر ، وكبرها الساخر المستهتر . فانعقدت ألسنتهم ،وسكن ضجيجهم ، وراحوا يتلامحون ويتهامسون

وكانت المرأة سوداء الشعر ، عالية الجبهة ، واسعـــة الحدقتين ، مستقيمة الانف ، ترف أهدابها الطويلة على خديها الناضرين فيومض وجهها الساحر ، وينسكب عليه فيض من الرواء والعظمة يخطف البصر ويأخذ بمجامع الالباب

ونهضت بغتة وقد احتوتها نزوة طارئة ، ولعبت براسهـا نشوة الخمر . فارتمت على أحد العمال، وجذبته ، وخاصرته، ثم دفعته الى وسـط الحلبـة ، وأهـابت به أن يرقص ، وهى تتفرس فيه ، وتتأمل تقاطيع وجهه الزاخرة بالرجولة ،وتضمه وتوشك أن تقبله

وراق الحاضرين هذا المشهد ، فافسحوا لهما المجـــال . فانطلقا يرقصان فى عنف مخبول ، موقع على هتاف الحناجر ، وتصفيق الايدى ، ورنين الكئوس

ولما أحست المرأة بالتعب ، وانتابها من فرط الرقص شبه دوار ، ارسلت صرخة منتشية ثم قبلت الرجل فى فمه قبلة طويلة ، ونفضته عنها وارتمت على مقعد . فضج لها الجمـــع بالهتاف والتهليل

وكان صاحبها الشاب الجميل المفتول العضل ينظر اليها فى كمد وسكون . فلما اقبلت بعد لحظة عليه ، غمغم فى اذنها وهو يرتعش :

ـ الا نرحل ؟

فاستضحكت وقالت وهى تلاطف خده باناملها :

ــ عندما يطلع الفجر !

وانفلتت كالضوء المارق ، وجلست على ركبة أحد قطاع الطرق ، ثم اختطفت كوبه الملىء واجترعت مافيه عن آخره !

وعندئذ ثارت ثائرة غانية كهلة كانت بقربه . فدنت منها ، وربتت على كتفها ، وقالت وهى تصعد فيها بصرها وتتحداها :

ــ هذا الرجل هو لى . فدعيه وشأنه أيتها الدخيلة والا . .

فقهقهت المرأة قهقهة مدوية ، ثم عادت فاختطفت الكوب وقذفت به وجه غريمتها . فجن جنون الغانية وانقضت عليها ، فركلتها المرأة فى بطنها . فأسرع قاطع الطريق لنجدة صديقته ، وأسرع الحاضرون لطرد الدخيلين

وفى تلك اللحظة فتح الباب فى عنف ، ودخل منه رهط من الجنود . فتراجعت الغانية ، وجمد كل من فى الحانة ، ثم خرجت المرأة مرفوعة الرأس ، عارية الوجه ، باسمة الثغر ، يتبعها الشاب الجميل ، وهو يعض على شفتيه حنقا ويختلج ويوشك أن يبكى

وما أن اختفت حتى صاح كل من الحاضرين بالآخر :

ــ من . . . من تكون هذه المرأة ؟

فوثب من احدى زوايا الحانة رجل طاعن فى السن ، أبيض اللحية ، جاحظ العينين ، محدودب الظهر ، وقال وهو يقطب حاجبيه وينتفض :

ــ الا تعرفونها ؟

فأجاب الكل متهافتين :

ــ كلا . . . لم نبصرها قط قبل الآن

فابتسم الشيخ ابتسامة مكمدة وصاح :

ــ انها ميسالين !

فأجفل الجميع ثم هتفوا :

ــ الامبراطورة ؟

فهز الشيخ رأسه ، وغمغم :

ـ هى بعينها . لم تظهر فى الملعب الشعبى الكبير غير مرة واحدة . ولكننى رأيتها فيه . رأيتها تشهد حفلة مصارعة . كنت مع ولدي . ولدى الوحيد اوكتافيوس . ولدى الذى يعجب بها ، ويقدسها ، ويبذل قصاراه فى التدرب على الحركات الرياضية الخارقة ، كي يصبح فى يوم من الايام مصارعا ممتازا ، خليقا بأن يظفر منها بلقب البطولة فى سباق العربات ومصارعة الوحوش ومنازلة الجبابرة من أبطال روما . اما أنا فلا احبها بل أكرهها من صميم قلبى . انها هى التى دست السم لفينيسيوس عضو مجلس الشيوخ ، لانه تمنع عليها وأبى أن يكون عشيقها ، وهى التى قتلت كاتونيوس رئيس البوليس لانه اجترأ على انتقاد سلوكها ، وهى التى نفت الفيلسوف سنيكا الى جزيرة كورسكا ، لانه ثار فى وجهها ولم يستطع أن يغض الطرف عن آثامها وفجورها ! انها عار روما . وما المحرمات التى ترتكبها الا لعنات تصبها الآلهة على هذا الوطن العزيز الذى لا يحفل بمصيره ، لا الحكام المترفون ، ولا الموظفون النفعيون ، ولا انتم أيها الشعب العابث المستسلم المتواكل !

وتوقف الشيخ لحظة وهو يلهث ثم استطرد صارخا :

ـ أرأيتم ؟ أرأيتم ذلك الشاب الذى كان فى صحبتها ؟ انه سيليوس الشريف عشيقها المفضل ، عشيقها الذى تريد أن تجعل منه زوجها الثانى بعد الامبراطور . لماذا ، لماذا تنظرون الى هكذا ؟ تلك هى الحقيقة . ان ميسالين على وشك أن تستصدر من مجلس الشيوخ اذنا شرعيا يخول لها حق الزواج من سيليوس ، وهى فى عصمة الامبراطور ! انها تريد أن تبيح للنساء حق التزوج بأكثر من رجل . انها لأفجر الفاجرات!

وشخص الى الجمع الذاهل المبهوت ، وتمتم وهو يرفع

ذراعيه الى السماء :

ـ متى ، متى تنكشف الغمة عن هـذا الوطـن • ومن ، من يمكن أن يكون ذلك الباسل الشجاع الذى فى مقدوره أن ينفذ روما بضربة سيف او طعنة خنجر ؟

فصاح احد العمال :

ـ لقد أسرفت أيها الشيخ • انها قيصرتنا على كل حـال • واكبر ظنى انك تلعنها لانك مسيحى !

فرفع الشيخ راسه وقال :

ـ لست مسيحيا ولا وثنيا • أنا من أصل اغريقي ، وحياتى الطويلة انقضت فى دراسة الحكمة والفلسفة . ولقـد علمتنى الفلسفة ان هذا العالم وحدة ، وانه لابد أن يكون محـكوما بسلطان اله واحد . فأنا أعبد هذا الاله الاحد ، وأنا فى سبيل وطنى أستنزل لعنته الابدية على ميسالين !

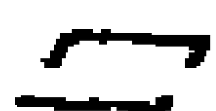
فقال له العامل ملوحا بقبضته :

ـ احذر انتقامها ولا تتهور !

فضحك الشيخ وقال :

ـ أنا فيلسوف وعراف ، وهى تقرب العرافين لانهـا تخشى الآلهة ! وداعا . لقد كشفت لكم عن الحقائق لابذر فى نفوسكم بذور الكرامة والتمرد ! هذا واجبى ! طابت ليلتكم . انا ذاهب لملاقاة ولدى

وتوكأ الشيخ على عصاه ، وانصرف وهم يتبعونه النظر ، وقد تناسوا اقداحهم . وتناسوا الغانيات ، وشرعوا يفكرون ويتهامسون



وكانت ميسالين التى خرجت فى صحبة سيلوس ورهط الجند من حرسها ، تريد أن تروح عن نفسها وتسهر فى المدينة

حتى الصباح . فاقتادت عشيقها الى احدى الحدائق العامة ، وجلست بجواره تحت خميلة كبيرة ، ومضت تداعبه وتلاطفه وتمنيه بتاج روما ، بعد أن تستصدر اذن الزواج الثانى من مجلس الشيوخ

وكان الشاب ساهما شاردا ، يخنق فى صدره لوعتـــه ، ويحاول أن يكبح شعوره بالحنق والاستنكار ما استطاع . بيد أن مرجل غضبه انفجر بالرغم منه . فصاح بميسالين :

ـ لست كلبا يجر بمقود ويلقى اليه فتات المائدة . إمـا أن أكون السيد واما أن أرحل !

وهم بالنهوض ، فتركته ينهض . ولكنـــه عاد فجلس . فنظرت اليه من خلال أهدابها الطويلة ، وقالت فى هدوء ملكى وهى تبتسم :

ـ على هذا الشرط قبلت أنت أن تكون اليوم عشيقى وغدا زوجى . نعم . انا أقدرك قدرك . ولقد اصطفيتـك من دون الرجال جميعا حبيبا لقلبى . ولكن ما حيلتى فى طباعى ، فى ميولى وأهوائى ؟ انا امرأة يعز عليها ألا تستمتع بكل شيء والا تفوز بكل شيء ! ان حب النزوات فى دمى ، واغراء الملذات هو مادة حياتى ! انا امبراطورة روما ولكنى سأموت يوما . فهل يرضيك ان تموت أعظم امرأة فى العالم ، وفى قلبها حسرة واحدة على لذة كانت تطلبها فحرمت نفسها منها عن طواعية ورضاء ؟ تلك حماقة يا صاحبى ، ومن العار على أن ارتكبها ! فثب الى رشدك ولا تنقض عهدنا . دعنى ملك أهوائى ، واعلم أن هذه الاهواء جميعا ستنصب آخر الامر فى محيط حبك كما تنصب مياه النهر فى البحر العريض !

ومالت اليه وطوقته بذراعها ، ثم قبلته وهو حائر . فتملص منها وأطرق برأسه وطفرت من عينيـــه الدموع . وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كان يتعذب فيها سيليـــوس ،

ويشعر مع ذلك ان ميسالين بقربه وانها له وحده ، فى تلك اللحظة برز شاب اشقر الشعر ، باهر الحسن ، واجتاز الحديقة ثم وقف عن بعد تحت شجرة باسقة ، ثم انبطح على الارض ، ثم نهض ، وطفق يثب ويتثنى ويتلوى ، ويقوم بحركات رياضية رائعة تحت ضوء القمر

وكانت اعضاؤه المرنة المفتولة تلمع كالبرق ، وصدره الابيض الناصع ينافس فى تألقه أشعة القمر . فارتعشت ميسالين ونهضت هي أيضا . نهضت من تلقاء نفسها . نهضت على دهش منها . وقبل أن يتنبه سيليوس أو يتحرك ، عدت الى أقصى الحديقة ، وأصدرت أمرا الى رجال الحرس فاندفعوا صوب الشاب الاشقر الشعر ، وطبقوا عليه ، ثم جروه جرا وهو يتملص ويتوعد وينذر ويقاوم

وأدرك سيليوس ان الفتى الرياضى قد راق فى عين ميسالين . فاقشعر بدنه ، وغشى الدم وجهه . ولكنه لم يستطع أن يتحرك

وفجأة سمع صراخ طويل ، صراخ متقطع يفتت الاكباد ، وشوهد الاحدب ، الاحدب الفيلسوف ، الاحدب الثائر المتمرد الذى كان يلعن الساعة ميسالين ، ويستنزل عليها لعنة الله والشعب ، شوهد وهو يركض فى ضوء القمر خلف الجنود ، ويصيح فى شبه خبال :

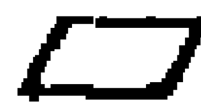
ــ ولدى ! ولدى !

وطفق يركض حتى خانته قواه ، فتهاوى على نفسه وسقط على العشب مغشيا عليه

وقهقهت ميسالين ، واقتادت سيليوس وهو يترنح . ولما دنت من الشيخ الصريع ، ألقت عليه نظرة ، ثم ركلته بقدمها ، ومضت تختال تيها وعجبا دون ان تتنبه لا هى ولا سيليوس الى شيء ابيض مطوى سقط منها وهى تعدو ، وعلق بغصن شجيرة ، وظل يتراقص تحت اشعة القمر

وعندما غادرت الحديقة فى صحبة عشيقهـــا ، هبت من الشمال ريح باردة سرعان ما اشتـــدت وطوحت بالاشجار . فاستفاق الاحدب الشيخ على صفيرها ، وتحامل على نفســه ونهض . نهض يتفقد عصاه ، ويجيل الطرف حوله وهو شارد. واذا به يلمح ذلك الشيء الابيض المطوى يتراقص فوق غصن الشجيرة . فاسترعاه منظره ، وانحنى عليه والتقطه . وما كاد يبسطه و يتأمله حتى بهت . بهت واعتراه من فرط فـرح شبه جنون . فألقى بعصاه وجلس على الارض وشرع يقرأ

وكان ذلك الشيء الابيض الذى سقط من ميسالين هـــو عريضة الالتماس التى كانت قد اعتزمت أن ترفعها الى مجلس الشيوخ لتستصدر منه ، ان طوعا وان كرهـا ، اذن الاقتران بعشيقها ، فتصبح فى وقت واحد زوجة الامبراطور وزوجـة سيليوس ! . .



فى مساء اليوم التالى افتقدت ميسالين المريضةفلم تجدها. فاستاءت ولكنها لم تحفل وعولت أن تكتسب غيرها بعد اذ تكون قد امضت ليلة شائقة ممتعة بين أحضان الشـــاب الرياضى القوى الذى حمله الجند الى قصرها

وتبرجت وتطيبت وارتدت أبدع غلائلها ، ثم أرخت شعرها الاثيث على كتفيها الناصعتين ، وتمددت على الاريكة ، وامرت بأن يدخل عليها الشاب الاشقر الجميل

ودخـــل أوكتافيوس ابن الاحـــدب الفيلسوف . وما كاد يبصرها حتى عرفها وادرك ما يراد منه

وكان أوكتافيوس معجبا بميسالين ، مقدرا عطفها وسخاءها على أبطال المصارعة ، متطلعا الى الظفر منهـــا بلقب البطولة الذى أرصد عليه جهد حياته . فلما ألفى نفسه فى مخدعها ، وادرك أنها قد اشتهته لجماله وشبابه ، ذكر لفوره الفتـــاة

الطاهرة التى يحبها ، واستهول أن يتلوث وينقض العهد المقدس الذى قطعه لها . فانقلب اعجابه بالمراة الى غضب مستنكر كظيم ماؤه العزم على التمنع والتعفف والمجالدة والثبات

وطوقته ميسالين بنظرة ظماى ، وقالت وهى تبسط له ذراعيها الناضرتين :

ـ تقدم ايها الشاب ، وقل لى ما اسمك وصناعتك ؟

فأجاب وهو يرتعش :

ـ أنا أوكتافيوس ابن الشيخ جاليا الفيلسوف ، وصناعتي مصارع . ولكنى ما زلت مجهولا لم احرز بعد لقب البطولة ولم أتشرف بالمثول بين يدى مولاتى قبل اليوم

فألقت عليه نظرة دل ناعسة ، وغمغمت :

ـ ادن منى .. اجلس .. هنا بجوارى .. لا تخف . انت منذ الساعة بطل يا أوكتافيوس !

وتماوجت أعضاؤها تماوج الافاعى، وامتدت يدها الرخصة وتصلبت كأنها مخلب ، وامسكت بالشاب ، وجذبته اليها . فانحنى أوكتافيوس امامها ، وجثا على الارض ، وقال وهو يرفع الى المراة الموهوبة بصره الزائغ ويتمتم :

ـ انا شاب فقير لا املك غير ساعدى . فاليك يا مولاتى هذا الساعد فهو فى خدمتك . أما قلبى ، قلبى وروحى وجسدى ، فقد وهبتها كلها يا مولاتى ، وليس فى مقدورى ان استرد ما وهبت !

فوثبت ميسالين من اريكتها وثبة فهد كاسر ، وواجهت اوكتافيوس بعينيها الذاهلتين المتقدتين ، وصاحت :

ـ ما معنى ما تقول يا فتى ؟

فتمالك الشاب نفسه واجاب :

ـ لى خطيبة أحبها بل اعبدها ، وقد تعاهدنا على الزواج ،

وليس من تقاليدنا يا مولاتى ان ننقض العهد !

فأرسلت المراة ضحكة مدوية وقالت :

ــ العهد شىء وفرصة العمر شىء آخر ..

وصمتت لحظة وهى تتلوى ثم اردفت فى عنف :

ــ ولقد احببتك وميزتك يا اوكتافيوس ، فانتهز فرصة عمرك وتقدم

ومالت اليه بجمع بدنها واحتضنته . فاندفق الدم الى وجه الشاب ، وتراجع ثم ارتمي ثانيــة على الارض وطفق يقبل يدى ميسالين وهو يصيح :

ــ الرحمة يا مولاتى ! لا تلوثينى فى نظر نفسى . لا تحاولى القضاء على مستقبل حبى . كيف يمكننى ان أتزوج غــدا خطيبتى وأعيش معها وهــذه الجريمة نصب عينى ؟ انا لا استطيع ان أغدر . لا أستطيع ان أخــدع . لا استطيع ان اقرب الفتاة الطاهرة التى أعبــدها وانا منتهك وملوث ! ان حبى يامولاتي لا يكمن فى قلبى فقط بل فى ضميرى أيضا . ولو انى خنقت الآن ضميرى فلابد ان أجهز فى الوقت نفسه على حبى ، والا اصبحت شرا من أخبث وأفتك المنافقين والحانثين ! لا .. لا يا مولاتى . انت عظيمة ، انت رحيمة ، انت عادلة . وأنا واثق بل مؤمن بأن كرامة نفسك لابد ان تصون كرامتى ، وشرف خلالك لابد ان ينقذ ضميرى ووفائى وشرفى!

وجاشت عواطفــه وبكى . بكى كما كان يبكى سيليوس فعضت ميسالين على شفتيها ، وشعت من عينيهــا نظــرة احتقار تخالها وميض خاطف غريب ، ثم ضمت على صدرها أطراف غلالتها ، وارتدت الى الاريكة وتمددت عليها ، وقالت فى صوت عذب رخيم كأن كلمات الشــاب لم تستفزهــا ولم تصب مقتلا من كرامتها وكبريائها :

ــ مرحى لك يااوكتافيوس ! انك فى الحق لعــاشق وفى !

هذه التجربة الخارقة التى خرجت منها ظافرا تمنحك لقب البطولة الفذة عن جدارة واستحقاق ! ستصلك البراءة غدا ، وستكون أول المصارعين فى أول حفلة شعبية اقيمها !

وجاهدت نفسها لتضفي على وجهها شتي الوان الرضا . ثم ابتسمت فجأة ابتسامة مطمئنة وصريحة ، ثم قالت فى بساطة ساذجة رائعة :

ـ وما اسم خطيبتك ؟

فارتاح أوكتافيوس لابتسامتها وأجاب على الفور :

ـ هى اوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح المشهور

فأسبلت ميسالين أهدابها وغمغمت :

ـ بورك لك فيها يا بنى . فلأنت جدير بماكة ! اذهب . اذهب الآن الى حجرتك وسأصدر امرى حالا باطلاق سراحك

فانحنى أوكتافيوس وقبل طرف ثوبها خاشعا وخرج . وما كاد يختفى حتى عصف الذل والحقد والاستنكار بالمرأة فانفجر غضبها المحتجز ، وأسرعت الى اسطوانة نحاسية مثبتة فى الحائط ، فضربتها بمطرقة . فمثل أمامها عملاق افريقى اسود كانت قد عهدت اليه بحراسة مخدعها . فصاحت به وهى تكاد تفقد رشدها :

ـ حذار ان يمس هذا الشاب بسوء ! لا تفرجوا عنه . عاملوه أحسن معاملة وأكرموه !

واتأدت لحظة وهى تلهث ، ثم أردفت فى صوت غائر أجش :

ـ القوا القبض منذ الساعة على الفتاة المدعوة أوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح !

وكان الاحدب الفيلسوف جالبا الذى روعه وذهب بلبه اعتقال ولده أوكتافيوس ، يطوف بقصر الامبراطورة كالروح الحائر ، لا يدري ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على ابنه الوحيد من غدر ميسالين . كان يوجس خيفة من ان توقع

المرأة الفاجرة بولده بعد اذ تكون قد قضت لبانتها منه فظل يحوم حول القصر ، ويتسقط الانباء من الخدم ، ويستفسر فى لباقة وحذر عن موعد عودة الامبراطور

وكان الامبراطور كاوديوس زوج ميسالين متغيبا فى مدينة « أوستيا » يتفقد حاميتها . فقيل لجالبا انه قد يعود بعد اسبوع او شهر . فجن جنون الشيخ ، وسدت فى وجهه السبل ، وخيل اليه ان ابنه قد استاب الى الابد منه ، وأن القدر الغاشم قد سلط هذه المرأة على وحيده لتفقده الشرف والشباب والحياة

واستبدت به الهواجس ، وبرحت به الريب والشكوك . فألقى على القصر نظرة يأس ممزقة ، ثم كر راجعا الى بيته

وكان الوقت ظهرا ، والحر خانقا والشمس تتوهج فى كبد السماء . فتمهل الشيخ لحظة ، ومسح عرقه بكم ردائه واستطرد المسير

وبغتة طرق سمعه صهيل خيل ، وصفير ابواق ، ودوى مركبات . فتوقف مذعورا ونظر . نظر الى الافق القريب . واذا به يستشف عن بعد موكبا عظيما يتقدم صوبه كالعاصفة. فأسرع وتنحى ، ولاذ بقاعدة أحد التماثيل ، واحتجب خلفها. وكان موكب عودة الامبراطور . فترجل كاوديوس فى هدوء ، وتبعه الاشراف والاعيان . فصدحت الموسيقى ، وهتف الحرس ، واطلت ميسالين من احدى شرفات القصر وجعلت تلوح بمنديل أحمر مرحبة بزوجها الذى لم تكن تتوقع أن يعود من رحلته بمثل هذه السرعة

وامتلأت فسحة القصر بالجماهير ، وطفت أمواجها على الشوارع المجاورة . فألفى الشيخ نفسه محاطا بها ، مندفعا معها ، مسوقا بقوتها الى حديقة القصر . فاستسلم وتقدم ، وقلبه يخفق ، وأنفاسه تلهث ، وعينه الواعية المتنبهة تبحث

بين الاشراف والاعيان عن رفيق صباه الضابط العظيم فرنسيس ملازم الامبراطور

وانه ليحدق بكل ماقى بصره الاحسر من قوة واذا به يلمح صديقه الكبير وهو يجتاز السلم الداخلى متابطا ذراع القنصل مارسلوس . فما أن رآه حتى نسى نفسه ، ونسى أين هو ؛ وصاح بأعلى صوته غير حافل :

ـ نرسيس ! نرسيس !

فتلفت الضابط مذهولا وعرفه . فابتسم له . ولكنه لم يستطع أن يابى نداءه ، لان الجماهير كانت قد دفعته هو الآخر ، وغيبته فى أعماق القصر ، وهى تهتف

وظلت تهتف لحظة طويلة بعد أن غلقت الابواب ، بل ظلت تنادي وتطالب رؤية الامبراطور . فبرز اليها كلوديوس فى صحبة ميسالين . فارتفعت صيحاتها ، وتعالى تهليلها . فتقدمت ميسالين الى حافة الشرفة ، ورفعت ذراعها ، وقالت فى صوت جهير ، واشعة الشمس تغمرها ، واضواؤها اللامعة تخطف أبصار الجماهير :

ـ موعدنا غدا ! فى الملعب الاكبر ! ستشهدون أروع ضروب المصارعة ساقدم لكم أوكتافيوس ! أوكتافيوس ابن الشيخ جاليا الاغريقى . بطل روما الجديد ، ونابغة الناصرين !

فدوت الحناجر بالصراخ ، والاكف بالتصفيق . وجمد الشيخ جاليا ، وفغر فاه كابله ، وسحقته الريب والظنون . ولكنه تمالك نفسه ، وبدل أن يكر راجعا الى بيته ، تحول عن طريقه ، وشق صفوف الجماهير كما يشق السابح الجبار كتل الموج ، ثم تابط عصاه ، وعض على طرف ردائه وانطلق يعدو فى لهفة مخبولة نحو قصر صديقه الضابط العظيم نرسيس

ولم يكن الامبراطور كلوديوس ذلك القيصر المثالى المهيب

الجليل الذى اشتهر بين العامة بالحكمة والرصانة ورجاحة العقل . الواقع انه كان رجلا واهن العزم ، مسلوب الارادة ، متقلبا متلونا مترددا ، لا يستقر على رأى ، ولا يذعن لنصيحة ، ولا يتبع غير وحى النزوة العابرة ، والعاطفة الطائشة ، والهوى الجامح الوقتى . وكان يحب الملق ، ويستمرىء الزلفى ، ولا تطيب له الحياة الا فى رفقة من لايعكر عليه صفوه ، ومن يحاول بكل ما أوتى من ذكاء ان يدخل السرور على نفسه ، ويخفف عنه اعباء المنصب وتبعات الحكم

وكان كمعظم قياصرة الرومان فى عهد انحطاطهم ، مولعا باللذات ، كلفا بالملاهى ، مستعبدا للبطنة ، متكبرا فى غرور ، مستبدا فى خبث ، طاغية في مرح جنونى وفى قسوة ووحشية

ولقد بذل المخلصون قصاراهم فى تلطيف طبعه ، وتنوير ذهنه ، واثارة اهتمامه بسلوك ميسالين . ولكنه كان لا يريد ان يسمع أو يفهم او يرى . كان فى الحقيقة يحذر امراته ويتهيبها ويخشاها . كان يرتعد خوفا منها ، وينخلع رهبة امامها ، ويضطرب ويرتبك ويتلعثم كلما اصطدم بها ، أو حاول اصدار امر اليها أو أراد ان يشعرها بأنه هو الزوج وهو الامبراطور

وهكذا كان يفزع من ضعفه الى الملاهى ، ويفر من جبنه الى الملذات ، ولا سيما لذة الطعام والشراب

ففى اليوم ذاته الذى عاد فيه من « أوستيسا » على غير انتظار ، اراد أن يفرج عن نفسه ، وان يتخلص من التفكير فى امرأته ، وان يدفن همه فى حفلة شائقة . فاستبقى ملازمه نرسيس فى قصره ، وعهد اليه بتنظيم الحفلة ، ثم التمس منه ان يقضى الليل بقربه ليستعين بخدماته عند الاقتضاء

والحق أن كلوديوس كان يعلم بالعلاقة الوثيقة التى تربط

ميسالين بالشريف سيليوس ، ولكنه كان لايصدق ما ترامى اليه من انها تريدان تتخذ من سيليوس زوجا ثانيا . ومع ذلك فقد كان مستريبا بها ، موجسا خيفة منها ، يتوقع أن تدبر له المكائد ، وتحاول أن تقتله بين لحظة واخرى .

ولقد طالما أسعفه نرسيس بشجاعته ، وحفزه للتخلص من ميسالين بطلاقها او نفيها او قتلها . ولكنه كان لا يفتأ يتردد ويتلكأ ، ويلتمس لها الاعذار ، شعورا منه بأن انصارها فى البلاط ، وفى مجلس الشيوخ ، وبين بعض طبقات الشعب يؤلفون قوة عظيمة مرهوبة واسعة النفوذ والسلطان

فلكى ينسى كلوديوس كل هذا انطوى على نفسه ، وابى ان يشهد حفلة المصارعة التى وعدت بها ميسالين جماهير الشعب، ورأى أن يقيم حفلته الخاصة فى الوقت نفسه وفى جناح قصى من القصر

وعلى هذه الفكرة التى زينها له حقده على امرأته ، وغيرته منها، ورغبته الخفية فى مكايدتها ، ونفوره من الظهور معها فى ملعب المصارعة ، وهى مصحوبة بسيليوس عشيقها ، نام كلوديوس ملء جفنيه مطمئنا الى حراسة نرسيس ، تداعب احلامه شتى الوان الطعام والشراب ، تحملها اليه وتصبها له اجمل وافتن غادات روما

وما كادت تشرق شمس اليوم التالى ، حتى توافدت الجماهير على الملعب الكبير ، واقبلت على القصر جموع الاشراف والاعيان وأعضاء مجلس الشيوخ ، للاشتراك فى حفلة الامبراطور

وعز على ميسالين أن يقيم زوجها فى نفس اليوم مادبة . وان يرفض الظهور معها فى حفلة المصارعة . فاوعزت الى عشيقها سيليوس أن يجرب حظه مرة اخرى ، وأن يدس لكلوديوس السم فى طعامه بالاتفاق مع رئيس الطهاة . ولم تكن هذه أول مرة يقدم فيها سيليوس على مثل هذا العمل .

ولكن عين نرسيس الساهرة كانت ترقبـــه وكانت تلحق به الفشل فى كل محاولة

ففى الساعة العاشرة تماما اكتمل عدد المدعوين فى حفـلة الامبراطور ، وبدأت الراقصات يرقصن ، والمطربات يغنين ، وكلوديوس يجيل الطرف فيهن تارة ، وفى الوان الطعام تارة أخرى ، وهو جالس على منصة عالية ومن حوله الملازم نرسيس والقنصل مارسلوس

وكان قد ارتدى حلة حريرية ناصعة البياض ، وعقد حول رأسه اكليلا من الغار ، واسدل على كتفيه وشاحا من المخمل الازرق ، واجلس بالقرب منه أجمل عازفة على القيثار، وشرع يداعبها ويلاطفها وهى تسكب له الخمر فى كأس كبيرة صيغت من الذهب الخالص

وامر كلوديوس بأن تغلق عليهم الابواب كى لا تترامى اليهم من الملعب الكبير صيحات الجماهير

وهكذا انطلقوا يأكلون ويشربون ويشهدون الرقص ويستمعون الى الموسيقى ، وهم ممددون على الارائك يحتضن كل واحد منهم غانية من غوانى روما، أو جارية من سبايا الشرق ، أو كأسا يظنها غانية فيوسعها ضما وتقبيلا

أما الملعب الكبير فكان فى تلك اللحظة غاصا بالناس . وكانت الجماهير وقد الهبت خيالها دعوة الامبراطورة ، تتسابق الى المقاعد وتتشاتم وتتضارب لتحتل أولى درجات الملعب

وكانت كل أم قد جاءت فى صحبة أطفالها ، وكل شاب قد وفد فى رفقة حبيبته ، وكل عامل أو صانع قد اقبل ومعـه والدته العجـوز ، أو والده الشيـــخ ، أو رهط من الفقراء والصعاليك والمرضى من سكان حيه والاحياء المجاورة

وكان الملعب يبدو كقوس قزح . فأزياء الجمـاهير كـانت متعددة ، واجناسها متباينة ، تضـــاعف من غرابتها غرابة

الوجوه ، واختلاف السمات ، وتنوع السحن

وفجأة سمعت فى المقاعد الامامية صرخة امرأة ، وشوهد الاحدب الشيخ جالبا يدفع هذه المرأة فى عنف ويحتل بالقوة مقعدا ممتازا فى مقدمة المدرج

واستنكرت المرأة وقاحته ، فهوت على حدبتــــه بكفها ، فاحتمل اللطمة ولكنه جلس . فقهقه الجمهور اعجابا ، وراح يرشق المرأة المهزومة بالنكات وهو يهتف للشيخ !

وطال أمد الانتظار ، فعيــــل صبر الجمهور ، وبدأ يصرخ ويصفق

وفى الساعة الحادية عشرة تماما أقبــــل حملة الابواق ، واصطفوا داخل حلبة الملعب فى شكل هالة ، ونفخوا فى ابواقهم . فهللت الجماهير ثم سكنت

سكنت وتطلعت . تطلعت الى العمــــلاق الافريقى حارس مخدع ميسالين الذى توسط الحلبة ، وحيا الجماهير بسيفه ، ثم تراجع بعد أن صدر أمره بفتح الباب

وفتح باب الحلبة وبرز منه عشرة مصارعين ، فنفــــخ الجنود مرة ثانية فى الابواق ثم اختفوا ، وبدا الصراع

وكان الصراع بالسيوف . فتلاحمت النصال ، واصطدمت بالخوذ والدروع ، ثم سقط أول مصارع ، فالثانى ، فالثالث ، حتى لم يعد باقيا فى الملعب غير رجلين ، تقاتلا نصف ســــاعة تقريبا . فتمكن أحدهما من الآخر ، والقى به عــلى الأرض ووضع قدمه على عنقه ، ثم عاجله بطعنة قضت عليه لساعته

وتقدم المصارع الظافر ملوحا بسيفه . فهتف له الجمهور طويلا ثم صمت . صمت فترة وصاح :

ــ أوكتافيــوس . نريد أوكتافيــوس ! المجــد والحياة لميسالين !

وكانت الامبراطورة لم تزل فى مخدعها تتجمل وتتبرج .

فأسرع اليها حارس مخدعها . فأمرته بأن يبدأ بعرض المشهد الثانى ريثما تفرغ من زينتها وتدخل الملعب

وعاد الجند فنفخوا فى الابواق ، ففتح الباب الرهيب مرة ثانية ، وبرز منه فوج من الناس .. فوج من النساء والفتيات والشيوخ والشبان فى أسمال بالية واطمار مهلهلة ، فصرخت الجماهير :

ـ المسيحيون ! المسيحيون !

فتقدم الشهداء الى وسط الحلبة وطفقوا يصلون ويرتلون ، وعندئذ فتح باب جانبى صغير ، واندفعت منه خمسة نمور ضارية جائعة ، سرعان ما انقضت على الشهداء وشرعت تفترسهم وهم يصرخون وينتحبون ويصلون ويرتلون

وراق للجماهير هذا المشهد فعلا ضجيجها ، واختلط هتافها بزئير النمور وعويل الشهداء . وفى تلك اللحظة أقبلت الامبراطورة ، وعن يمينها الشريف سيليوس وعن يسارها البطل المرتقب اوكتافيوس . فحيتها الجماهير بعاصفة من الهتاف وأمطرت منصتها بالورود

وحدق الاحدب الشيخ فى ابنه عن بعد ولم يفهم . لم يفهم لماذا هو فى المنصة لا الملعب . ولماذا هو ينقلب من مصارع الى متفرج

وحاول أن يشعره بوجوده . ولكن الشاب لم يبصر ولم يسمع ، وظل ساهما شاردا يخالس ميسالين النظر ولا يدرى من نواياها الخفية شيئا

وبعد أن أتت النمور على جثث الشهداء ورفعت أشلاؤها الدامية من الحلبة ، صدحت الموسيقى ، ومنحت الجماهير فترة انتظار تستريح فيها أعصابها

وانحنت ميسالين على عشيقها سيليوس ، وهمست فى اذنه وقد دبت فى عودها هزة عنيفة ، وتألق فى عينيها ضرام جذل

ـ لاتحقد على غريمك . سوف ترى !

وانثنت الى أوكتافيوس ، وغرست نظراتها في عينيه ، وجاهدت نفسها لتخفي سورة حقدها وبغضها ، وقالت بصوتها العذب ذى الجرس الصافي :

ـ ماعدلت عن الافراج عنك الا لانتهز فرصة هذه الحفلة ، فأمنحك لقب البطولة على مشهد من اهل روما جميعا !

وابتسمت واردفت :

ـ سيجيء دورك وستهبط الى الحلبة فاطمئن !

وما أن كفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وعاد المتفرجون الى أماكنهم ، وتهيئوا لاستقبال المشهد الجديد ، حتى القت ميسالين الى عشيقها سيليوس بزهرة كانت تعبث بها ثم نهضت . نهضت منصوبة القامة ، شامخة الراس ، متلعة الجيد ، ثم نظرت الى الجماهير ورفعت ذراعها . .

وساد صمت عميق كصمت السماء قبيل العاصفة . فتقدمت ميسالين خطوة . وصاحت بصوت واضح المخارج باتر النبرات :

ـ أليكم الآن يا أهل روما أروع مشاهد هذا اليوم ! ارهفوا آذانكم واسمعوا ! لقد تطاولت على وعرضت بى في احد المجتمعات فتاة صلفة مغرورة من بائعات الهوى ، فقضيت عليها بالموت ! ستبرز الآن أمامكم ، وامام هذا البطل . . البطل المرتقب أوكتافيوس !

وأشارت اليه واردفت :

ـ فاذا استطاع ان ينقذها ، فانى أمنحها الحياة عن طيب خاطر واعفو عنها !

وأهابت بحارسها الافريقي :

ـ افتح باب الحلبة واطلق الفتاة !

فاندلعت العيون واشرأبت الاعناق ، وطفق الشعب يصيح

وأبصاره موزعة بين المنصة والحلبة : المجد ! المجد لميسالين !
وفتح الباب للمرة الثالثة وانطلقت منه فتاة مشعثة الشعر ، ممزقة الثوب ، جاحظة العينين ، واندفعت الى أقصى الحلبة وجعلت تستغيث وتصرخ :
ـ أوكتافيوس ! اوكتافيوس !
وماكادت تظهر حتى برز فى أثرها أسد ضخم فظيع أقعى على الارض كالطود الشامخ ، وطفق يزمجر زمجرة هزت الملعب من اعماقه ، وردت الجماهير واجفة القلب حاسرة الطرف منخلعة الاعصاب
وحدق أوكتافيوس الى الفتاة وصاح :
ـ اوجستا !
فقهقهت ميسالين وأجابت :
ـ هى بعينها ! فاهبط اليها ! انقذها ! انقذ الآن خطيبتك ان استطعت
فتاه عقل الشاب وذهل . ذهل ولم يتحرك . وعندئذ سمع صوت الاحدب الشيخ يهدر عن بعد ويقول :
ـ قم بواجبك يابنى وتشجع !
ثم سمع من مؤخرة الملعب صوتا آخر يجأر وهو ينتحب
ـ ابنتى !
وكان هو صوت صانع السلاح والد أوجستا . فلم يكد يسمعه أوكتافيوس حتى تمزق وصحا . صحا كمخبول ولم يردد . وفى مثل خطف البرق وثب من المنصة الى الحلبة ، ثم غافل الاسد وعدا صوب أوجستا . وقبل أن يتنبه الوحش ، أطبق أوكتافيوس على الفتاة ، وحملها بين ذراعيه ، وقذف بها الى المدرج . فتلقفتها أيدى الجماهير التى انطلقت تهلل وتصرخ :
ـ المجد لاوكتافيوس والحياة للغانية ! .

وفى تلك اللحظة ، زمجر الاسد وقفز . قفز نحو الشاب فى سورة طارئة داهمة . فامتشق أوكتافيوس سيفه وارتمى عليه . ارتمى عليه فى حذر وطعنه فى جبهته . فثارت ثائرة الوحش وتراجع . فعاجله الشاب بطعنة أخرى . فانقض عليه الاسد بجمع مخلبه وهو يزأر . فراغ منه اوكتافيوس ، وعدا الى أقصى الحلبة . ولما أبصر الوحش مكرا عليه ،ثبتفىمكانه، وسدد اليه بصره ، ثم أغمد فى صدره السيف . فترنح الاسد وأوشك أن يميد . ففرح أوكتافيوس وهم بأن يطرح سيفه . ولكن الاسد أفاق بغتة من غشيته . وقبل أن يطوح به ألم جراحه ، استجمع قواه وانقض على الشاب وضربه بمخلبه فى صدره . فهوى أكتافيوس على الارض صريعا ، وهوى الوحش بالقرب منه يتخبط فى دمه

واندفع العملاق الافريقى الى وسط الحلبة وصاح :

ـ مات البطل أوكتافيوس ولكنه قتل الاسد ! المجد والحياة لميسالين !

فهبت الجماهير واقفة ، وأنشدت على نغمات الموسيقى نشيد وداع الابطال ، ومضت تلقى بطاقات الورد على جثة أوكتافيوس وهى تغنى

واذ ذاك ، وفى صميم تلك الجلبة التى اختلط فيها الغناء بصياح النساء وولولة الاطفال وعزف الموسيقى ، كان الشيخ الاحدب جاليا والد أوكتافيوس يمزقوجهه بأظفاره ، ويضرب صدره بكلتا يديه ، ويشق صفوف الجماهير وهو يسمع نحيب أوجستا خطيبة ولده ، ويتجه فى جنون نحو منصة ميسالين !

وفقد عقله ، فأراد ان يثأر منها وان يقتلها . أن يغافلها ويرديها بطعنة خنجر قبل أن تغادر الملعب . وانهليتقدمصوبها، راسخ العزم ثابت الخطى ، واذا به يقف على الرغم منه ويتراجع

ابصر صديقه ، صديقه الذى لم يستطع أن يتصل به أمس ، صديقه الضابط نرسيس ، يعتلى المنصة فى عنف وقد اتسعت حدقتاه وانبعث منهما بوارق ملتمعة أشبه بشرارات نار ، ويندفع نحو ميسالين ، ويصرخ فى وجهها غير حافل !

ـ اتبعينى حالا . . هذا أمر الامبراطور ! كان طعامه مسموما وقد أكل منه أحد العبيد فمات ! انه يتهمك ويطلبك الساعة للدفاع عن نفسك !

فوجمت ميسالين ، ولكنها تماسكت وابتسمت . ونظرت الى سيليوس ولم تتحرك . اما الاحدب الشيخ فقد افقده الفرح صوابه . فاخترق زحمة الجماهير وصاح بكل ماقى قلبه من حقد ولوعة وأسى :

ـ نرسيس .. نرسيس .. خذنى معك ! اريد أن أرى الامبراطور !

فنهضت ميسالين وتطلعت اليه مستغربة . فلم يتهيبها،بل دنا منها ، وتحداها ، وفى صوت غائر متحشرج تدوى فى أعماقه البعيدة نذر القدر ، ألقى فى وجهها هذه الكلمات :

ـ قتلت أوكتافيوس ولدى ، ولكن ثأرى لابد أن يطاردك حتى تلفظى النفس الاخير !

وأردف فى وحشية وهو يكاد يقهقه :

ـ العريضة معى ! الالتماس الذى كتبته أنت بخطك لترفعيه الى مجلس الشيوخ منتهزة فرصة غياب الامبراطور فى أوستيا! انه معى . وانا أريد أن أرى الامبراطور !

فأبرقت عينا نرسيس ، واختبلت ميسالين وصاحت :

ـ القوا القبض على هذا الشيخ !

فصرخ نرسيس باسطا ذراعيه :

ـ ويل لمن يمس هذا الرجل بأذى !

والتفت الى من اقبلوا فى صحبته من الاشراف والاعيان .

والجند انصار الامبراطور ، وقال :

ـ فرقوا الجماهير ، وسوقوا الى القصر ميسالين وسيليوس !

واقتاد الاحدب من ذراعه واردف :

ـ اتبعنا الى حيث يقيم الامبراطور

وطوق الجمع ميسالين وعشيقها ، ودفعهما الى الامام دفعا فاستشاط غضب الامبراطورة وصاحت :

ـ الى يا اجريبا !

فامتشق العملاق الافريقى حسامه . ولكن نرسيس كان اسرع منه ، فعاجله بضربة سيف فى صدره قضت عليه

وحاول سيليوس ان يذود عن عشيقته . غير ان احد الضباط تمكن منه وانتزع سيفه . فامتقع وجه ميسالين وارتعدت فرائصها ، ولم تجد بدا من الاذعان فتقدمت ، ولكنها تمالكت نفسها ، وطوقت بذراعها خصر عشيقها ،وقالت له فى صوت خفيض وهى تبتسم :

ـ تشجع واعتمد على ! مازلت امراة ، وما زال فى وسع المرأة أن تهزم أمبراطورا !

ومشت مشيتها الملكية وكأنها فى موكب مجد وحياة ، لا فى موكب هزيمة وموت

وكان الامبراطور ممددا على أريكته ، يفكر فى الامر الذى أصدره ويرتجف . كان يود أن يقضى على ميسالين ، ويود فى الوقت نفسه ان يجد مبررا للعفو عنها كان خوفه منها يشوش فكره ، ويزعزع ارادته ، ويبتليه بشبه نوبات متقطعة من الحماسة والفتور والاقدام والاحجام ، والبسالة والجبن

فلما دخل عليه نرسيس مصحوبا بالشيخ جالبا ، تلفت اليهما وهو ساهم . ثم حدق الى الشيخ الغريب فى ذعر ، واهاب بالضابط :

ـ من هذا الرجل ؟

وقبل ان ينطق نرسيس أو الاحدب بكلمة ، دخلت ميسالين ، وارتمت على زوجها ، وعانقته عناقا حارا ، وبكت . . . اجهشت بالبكاء وهى تعانقه وتقبله . ثم اختلجت وتأوهت وتثنت . وفى وقاحة منكرة كوقاحة البغايا . حلت شعرها ، ونضت عنها ثوبها ، وضمت اليها كلوديوس وهى شبه عارية ، وطفقت تهمس فى أذنه بكل حرارة انوثتها ونهب جثمانها :

ـ لا تنصت لهم . انهم مفترون ومغرضون . الحقد يملأ قلوبهم . هم الذين دسوا السم فى طعامك . هو نرسيس الذى يطمع فى الملك بعدك . اما أنا فأعبدك وانت وحدك مولاى وسيدى . فاقتلنى ، اقتلنى اذا شئت . ولكن اعلم انى طاهرة وبريئة ، انى احبك ، وانى وان كنت مسكينة ومظلومة الا ان اسعد لحظة فى حياتى هى اللحظة التى اموت فيها بيدك!

فضطرب كلوديوس وانتشى . ولكن نرسيس اندفع نحوه ، وجذب الاحدب من ذراعه ، وقال فى صوت جهير :

ـ ابرز العريضة ياجالبا ! تقدم ! تقدم ولا تخف !

ففتح كلوديوس عينيه المنتفختين وقال :

ـ اية عريضة ؟

فصاح الشيخ جالبا وقد احتوته شجاعة دونها شجاعة ولده :

ـ انه التماس . . بل انذار مشوب بتهديد واضح ومصوغ فى قالب التماس كتبته الامبراطورة لترفعه الى مجلس الشيوخ اثناء غيبتك كى يخول لها وهى زوجتك الشرعية حق التزوج برجل ثان واليك المستند يا مولاى

ودفع بالورقة الى الامبراطور . فما كاد كلوديوس يلقى عليها نظرة حتى صرخ :

ـ انه خطك يا ميسالين !

فهنفت المرأة على الفور :

ـ انه سيليوس لا انا ! هو الذى حرضنى ! هو الذى أوعز الى ! ولكننى استفقت وثبت الى رشدى . فألقيت بالعريضة فى احدى الحدائق ، وأقسمت بالآلهة أن أطرد سيليوس اليوم من روما ، وان أظل طوال حياتى كما انا الان ، وفية لك وحدك، لا أعرف غيرك سيدا وعاشقا وحليلا !

فجحظت عينا سيليوس ، واستهول غدر المرأة ونفاقها ، فتقدم رافعا رأسه وقال :

ـ انها كاذبة ! الخطـ خطها ! وهى التى اتخذتنى عشيقا بمحض ارادتها ، وأرادت أن تقترن بى ، ثم تسعى لقتلك ثم تتوجنى امبراطورا ! لقد ضحت بى الآن لتفلت من عقابك . ولكنك لو عفوت عنها . فستكون أنت ، أنت ياكلوديوس أول ضحاياها ! اما انا فمن المحال أن أدعك تطردنى من وطنى أو تعاملنى كمجرم فتسلم عنقى الى سيف الجلاد ! وداعا !

واستل سيفه وبقربه بطنه . فانهار وهو يجاهد كى يخنق ألمه ولا يرسل فى لحظاته الاخيرة أية زفرة . فصاح نرسيس متوسلا وهو يمد ذراعيه ويشير الى ميسالين :

ـ لا ترحمها يا مولاى. اتبعها بعشيقها ! انقذ نفسك وانقذنا!

فجثت ميسالين وصرخت وهى تقبل قدمى زوجها :

ـ الرحمة ياكلوديوس . انى احبك !

فقال نرسيس منذرا :

ـ لو عفوت عنها يامولاى ، فثق انك لابد أن تفقدنى وتفقد منذ هذه اللحظة أنصارك جميعا !

فارتعش كلوديوس وتمتم :

ـ اعطوها . . اعطوها خنجرا ! لقد كانت امبراطورة ويجب أن تعرف كيف تموت !

فأسرع نرسيس وناولها خنجره . فاصفر وجهها ، واندلعت

عيناها ، وأمسكت بمقبض الخنجر وهي ترتعد من فرعها الى قدمها . عز عليها شبابها وجمالها ، ومجدها ونعيمها ،وجبروتها وسلطانها . فجمد الدم فى عروقها ، ولم تستطع ان تدنى طرف النصل من صدرها . فدنا منها نرسيس ، وانحنى عليها ، ثم أمسك بيدها المشلولة ودفع بالخنجر فى صدرها حتى مقبضه!

وتهاوت ميسالين والدم ينزف منها ، وعيناها الزجاجيتان تحدقان فى الشيخ الاحدب المأخوذ

وعندئذ ، وفي مثل مسرى النار ، ترامى النبأ من القصر الى الخارج . فاندفعت الجماهير الواعية ، الجماهير الموالية لنرسيس ، الجماهير الحاقدة على الامبراطورة ، والثائرة على نظام الحكم كله ، واقتحمت البهو الواسع . فتقدم احد الاشراف ، وحنى سيفه أمام كلوديوس وقال :

ـ ماتت ميسالين الفاجرة . المجد للامبراطور !

ولكن الجمهور هتف هتافا قاصفا مجلجلا :

ـ المجد للشعب ! المجد لروما !

فانكمش كلوديوس ، وارتعدت فرائصه ، وأحس قوة الشعب الغاضب لاول مرة فى حياته . فتحامل على نفسه ونهض . ولم يسعه الا أن يلوح للجماهير ويردد صاغرا :

ـ المجد للشعب ! المجد لروما !

اما الاحدب الشيخ جالبا الذى كان فى تلك اللحظة أسعد الناس واشقاهم ، فقد انسل من القصر ولما استقبل الشارع العريض ، انطلق من فوره الى بيت كاتون صانع السلاح ، وجل أمله فى هذه الدنيا ان يرى خطيبة ابنه أوجستا ، وأن يعيش ايامه الباقية بقربها ، وأن يبكى معها الوقت بعد الآخر ولده الوحيد أوكتافيوس ، بطل العفة والشهامة والوفاء ، وآخر ضحية من ضحايا الامبراطورة الفاجرة ميسالين !

فرنسا

حب الوطن

« كانت قد اندلعت نار الثـــورة الفرنسية الكبرى .وكانت ملكة فرنسا ماري انطوانيت قد استعدت الاجنبي على بلادها ، واستعانت بجيـــوش النمســا وبروسيا لقمع ثورة الشعب.وكان القــائد البروسي « برنسـويك » قد توغل في الاراضي الفرنســــــية ،وهدد ثوار باريس . اما القــائدان الثوريان « ديمور يينز » و«كيلرمان».فكانا قد عاهدا الشعب على الدفاع عن الثورة ومقاومة الاجنبي حتى الموت .واما الزعيم « دانتون » فكان قـــد نظم حركة تجنيد شعبي واســــعةالنطاق لتعزيز جيش الثورة والوقوف في وجه البروسيين والنمسويين ومنعهم من شق طريقهم الى باريس .»

في وسط ذلك الاعصار الذي اجتاح فرنسا وأوربا بأسرها ، كان الســـكون العميق يخيم على ضاحية فرنســية بعيـــدة ، ولا سيما على قصر عظيم ينهض في تلك الضاحية ، وتقيم فيه هيئة القيادة العليا المشرفة على الجيوش الاجنبية ، التي شرعت في التدفق لانقاذ الملكية في فرنسا ، وحماية النبلاء والاقطاعيين، ومقاتلة جيش التحرير الوطني

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريبا ، والضباط نيام ، والجو ينذر بعاصفة . وفجـــأة ، هبت الريح ، ودوى الرعد ، وانهمر المطر متعاقبا غزيرا ، وطفق يلطم جدران حجرة « فرانسواز » في أحد أجنحة القصر النائية

واضطربت فرانسواز وترددت . ولكنها أحست كأن الجو يحفزها ويدفعها . فتحاملت على نفسها ، ونهضت من فراشها، وفتحت باب حجرتها ، وقلبها يخفق ، وأوصالها ترتعـــد ، ووقفت بعتبة باب الحجرة ، تجيل الطرف حولها في قلق وخوف وتهم بالخروج

كانت قد عزمت أن تخرج برغم كل شيء . كانت قد عاهدت نفسها على الجراة والشجاعة والثبات واقتحام الخطر الهائل

الذى كان ماثلاً أمامها ، ويحتل ذهنها ، ويلهب خيالها ، ويسوم قلبها المتفطر ، وبدنها المتصدع ، وأعصابها المتوترة ، مر العذاب

ولكنها بدل ان تتحرك وتتقدم وتخرج ، لبثت فى مكانها ، تائهة عن نفسها ، غائبة عن وعيها ، تجمع شتات خواطرها ، وتحس على دهش منها أنها مندفعة لا الى العمل بل الى التريث والتأمل والتفكير

ومضت تفكر وهى مذهولة ، وتهجس فى نفسها ، واعضاؤها تنتفض والحمى تساورها :

ــ كيف ؟ أفى الامكان أن اتصور هذا ؟ أيمكن لفتاة مثلى أن تحنث بيمينها ، وتغدر بزميلاتها ، وتخون الثورة التى من اجلها عاشت وجاهدت ، وبوساطتها أدركت أن للحياة قيمة معنوية وغرضا ساميا ومثلا أعلى ؟ ماذا حل بى ؟وكيف تحولت من مواطنة ثائرة مجاهدة ، الى أنثى وضيعة ذليلة مستخذية، يغرر بى القلب ، وتعصف بى العاطفة ؟ اجل لقد احببت ! أحببت بكل قوى عقلى ، وكل قوى احساسى ، وكل قوى شبابى وجمالى ! ولكن من هو ذلك الذى أحببت ؟ يا لهول حظى التاعس المنكود ! هو ضابط بروسى ! هو رجل من الد أعداء بلادى ، رجل على أن احذره ، وعلى أن أراقبه ، وعلى أن استطعت أن أقتلع أنيابه بعد أن أكون قد أنشبت فيه مخالبى ! نعم . لقد احببته ! والمروع الآن فى أمرى انه يجب أن أنقذه ، ان ارتكب جريمة من أجله ، ان انتهك فى سبيله حرمة الواجب ، وحرمة القسم ، وحرمة الوطن ! ولو ترددت ، لو أحجمت ، فسيقتل « اوجو » ! سيقتل ! سيعدم رميا بالرصاص وفى مقدورى انا ان انقذه ! أيموت ؟ هو ؟ الرجل الذى ايقظ قلبى ، وأترع بدنى ، وسلبنى لبى ، وهدانى الى متعة الحب . ونعيم الهوى ؟ ليس فى وسعى أن اتصور هذا . هذا جنون ! بل

هو اجرام ، بل هو وحشية لا تصدر الا عن امرأة تنكرت لطبيعتها ، وخانت أنوثتها ، وفقدت كل احساس بالشفقة والرحمة ومعنى الانسانية ! كلا . ليس فى وسعى ! انا أنثى قبل أن أكون مواطنة ! أنا عاشقة قبل أن أكون مجاهدة ! ويجب .. يجب أن أنقذ أوجو . يجب أن أتشجع واقدم وانقذه

وكانت فرانسواز تفكر ، وعين خيالها المتقدة تتبعها ، ولا تنفك ترسم أمامها فى وضوح صارخ شخصية « بولين » رئيستها وزعيمة الهيئة الثورية التى تنتمى اليها ، وصديقة ممثل الشعب دانتون وموضع ثقته ، والفتاة التى لا تعرف فى الدفاع عن حق الثورة ضعفا أو تهاونا او صفحا او رحمة

وذكرت فرانسواز جهادها هى . ذكرت كيف تسللت الى تلك الضاحية البعيدة ، وكيف اخترقت جموع الجيوش الاجنبية ، وكيف دخلت هذا القصر للتجسس على جيش العدو فى صحبة رئيستها « بولين » وزميلتها « مرجريت » و « هورتانس » !

ذكرت كيف احتال دانتون على نبيل مفلس من كبار رجال البلاط الملكى ، وسخا عليه بالمال ، وساقه الى تزوير توقيع الملكة على خطاب يثبت أن الفتيات الاربع هن من صنائعها ومن أخلص واصدق أعوانها ، ويأمر كل ضابط نمسوى أو بروسى أن يرحب بهن ، ويكرم وفادتهن ، ويستخدمهن فى التجسس على رجال الثورة

ذكرت فرانسواز كل هذا ، وذكرت ايضا كيف جاهدت الزعيمة بولين ، وكيف مكرت واحتالت هى الاخرى حتى كسبت ثقة الضابط الكبير أوجو . فمنحها جوازا يخول لشخصين حق اجتياز الحدود التى يرابط فيها الجيش البروسى النمسوى ، ثم أفرد لها ولزميلاتها جناحا نائيا فى القصر نفسه ، كى يسهل على الفتيات الاربع أن يتصلن

اتصالا دائما بهيئة الجيش العليا . والعجيب أن بولين ، بولين الضئيلة المهزولة الساكنة فى انطوائها وصمتهـا وجمودها ، كانت فتاة عبقرية ! اصابت فى مهمتها الشاقة نجاحا سريعا لم يكن قط فى الحسبان ! استطاعت فى أقـل من اسـبوع ، اسبوع واحد ، أن تضلل الضابط أوجو ، وتخدعه ، وتغافله وهو منهمك فى تأدية مهمـة عسـكرية مستعجلة ، وتدخل مخدعه ، وتصطنع مفتاحا لخزانته الخاصة ، ثم تسرق من الخزانة مستندا حربيا خطيرا ، يمكن أن يعتمد عليه جيش الثورة ، فى معرفة خطط العدو والعمل على احباطها ! هو ذاك . لقد سرقت بولين المستند ! المستند الخطير ! المستند الذى كان فى عهدة أوجو ! سرقته ، وأخفته فى مخدعها ، بين حشايا وسادتها . اخفته هناك ريثما تواتيها الفرصة المنشودة فتتسلل من القصر ، وتستخدم الجواز الذى تحمله ، وتعبر الحدود ، وتتصل بأحد أعوان دانتون ، وتسلمه المسـتند ، كى يسلمه بدوره الى قيادة جيش الثورة

فالمستند الآن هنا ! فى جوف الوسادة التى تنـام عليهـا بولين ! ولقد صارحت بذلك زميلاتها الثلاث ليـلة أمس ! اذن فحياة أوجو فى خطر ! والسرقة لابد أن تكتشف ، ولابد أن يتهم أوجو بالتقصير والاهمال أو الاتصال بجيش الثورة ، ولابد أن يحاكم أمام مجلس عسكرى ، ولابد أن يحكم عليـه اما بالاعدام واما بالانتحار !

وتصورت فرنسواز حبيبها جثة هامدة مضرجة بالدماء . فخلع الرعب قلبها ، وظلت ترتجف وأنفاسها المتعاقبة تكاد تخنقها . ولكن شدة الرعب أيقظت حوآسها ، ونبهت عقلها ، واستنهضت ارادتهـا . فزايلتها فى لحظـة عوامل الضعف والتردد ، وابت الا أن تجازف وتغامر وتنقذ حبيبها

ومشت كما يمشي النائم وهي تغمغم :

ـ سيفد أوجو الى هنا بعد قليل ، وسيكون فى حجرتى . . فى مخدعى . سيلبى ملهوفا دعوة الحب بعد أن يتفقد كعدته حرس القصر . سأراه وسأنقذه ! وسأرد اليه المستند المسروق وأهبه فوق متعة الحب نعمة الحياة !

وانطلقت بخطى وئيدة ، وصدرها يعلو ويهبط ، حابسة أنفاسها ، مسترقة خطاها ، هائمة فى الدهليز المستطيل الساكن المظلم ، المؤدى الى حجرة الزعيمة بولين

وما كاد يلوح امامها باب الحجرة الخشبى ، حتى اختلجت اختلاجا عنيفا ، واوشكت أن تترنح وتسقط . ولكنها تمالكت نفسها ، وعضت على شفتيها ، وهتفت :

ـ الآن أو أبدا ! الحجرة خاوية ، والفرصة سانحة ، ومع كل واحدة منا مفتاح مشترك تستطيع أن تنفذ به عند الحاجة الى غرفة زميلتها ، وبولين ما تزال فى هيئة القيادة تعاون ضابط الاتصال فى كتابة تقرير الى القائد البروسي برنسويك . لن تدخل الآن مخدعها ! وستذهب كعادتها قبل النوم الى غرفة الاستحمام ، وستمكث فيها ربع ساعة على الاقل . فلأتقدم ، ولانتهز فى شجاعة وعزم هذه الفرصة الفريدة التى لن تتيحها لى أعصابى الخائرة مرة اخرى !

وأعملت المفتاح فى الباب فانفتح . فدخلت الحجرة . فألفتها مضاءة بمصباح خافت صغير . فارتعدت وخيل اليها أن قواها على وشك أن تخونها . ولكنها سرعان ما لاذت بطيف حبيبها ، وتقدمت متجهة البصر نحو السرير ، ثم انشبت اظافرها فى الوسادة ، ومضت تمزق حواشيها ، وتدس فى جوفها اصابعها المرتعشة

وكانت غرفة الاستحمام مواجهة لمخدع بولين . وكانت موصدة الباب لا تنبعث منها اية حركة . وفجأة ماجت الغرفة واصطخبت ، وسمع منها صوت اصطفاق الماء على الحوض

الرخامى . فأدركت فرانسواز أن بولين قد دخلتها . فخفق قلبها ، وتخاذلت ركبتاها ، واصطدمت على الرغم منها بمنضدة صغيرة عليهـا آنيــة من نحاس ، فسقطت الآنية على الارض وأحدثت صوتا صارخا فاضحا مزعجا

وملأ الصوت كيان فرانسواز . فجحظت عيناها ، وكف قلبها عن الخفقان ، وتوقفت . أما بولين ، بولين الذكية الماكرة الداهية ، فكانت قد كست زجاج باب غرفة الحمام بقطعة من قماش ازرق تستطيع لو نحت أطرافهـا ان ترى من فى حجرتها دون أن يراها . فلما ترامى اليهــا صوت الآنيــة النحاسية وهى تســقط على الارض ، أجفلت ودهشت ثم وثبت من فورها الى مقعد صــغير كانت تضعه على الدوام بجوار الحوض ، واعتلتــه ، ونحت طرف القماش الازرق ، وأبصرت زميلتها .. زميلتها فرانسواز .. زميلتها فى الفكرة والمبدأ والجهاد ، تضم المستند تحت معطفها ، وتستدير وهى مذعورة ، وتتجه فى قلق ولهفة نحو الباب . واستمهلتها بولين حتى خرجت ، ثم قفزت بخفة الى الارض ، وتأدت لحظة ، ثم فتحت باب الحمام ، وألقت غلالتها الليلية البيضاء على بدنها العارى ، وأسرعت فانتزعت غدارتها من تحت الوسادة الممزقة ، وانطلقت فى أثر فرانسواز

وكانت فرانسواز لفرط شعورها بالفرح غائبة عن صوابها . فلم تسمع وقع الخطى السريعة التى تتبعها . فظلت بولين تلاحقهــا فى الدهليز المظلم الطويل حتى اقتربت الفتــاة من حجرة « هورتانس » أصغر الفتيات الاربع سنا ، وأشدهن تفانيا فى خدمة الثورة . وعندئذ مدت بولين ذراعها ، ولمست كتف فرانسواز وهمست : « قفى ! »

فانخلع قلب فرانسواز ، ومادت بها الارض ، وحاولت أن تستجمع قواها لتتملص وتفر . ولكن بولين انقضت عليهـا

واختطفت المستند منها ، ثم أمسكت بها ، وفتحت حجرة هورتانس وأيقظتها ، وقالت فى هدوء ثابت عازم :

ــ أيقظى مرجريت أيضا . واتبعانى . اتبعانى الى غرفة فرانسواز !

وجذبت فرانسواز من ذراعها ، ومشت بها فى الدهليز الطويل ، والفتاة منقادة اليها ، مسلوبة مأخوذة مذهولة ، لا تدرى أفى يقظة هى أم فى حلم طارىء مشوش يموج فيه رهط مروع من الاشباح . ولما دخلتا الغرفة ، اسرعت بولين فأسدلت الستار على النافذة ، ثم اندفعت نحو الفتاة وقالت فى صوت غائر أجش وهى تحدق اليها :

ــ لماذا سرقت المستند يا خائنة !

وارتمت عليها ، وتشبثت بها ، وطفقت تهزها هزا عنيفا وتردد :

ــ لماذا سرقت المستند ؟ تريدين ولاشك رده الى القيادة طمعا فى المال ؟ تطمعين فى المال ولو اهلكتنا ؟ اجيبى !

فاستهولت فرانسواز أن تتهم بالخيانة من اجل المال فثارت كبرياؤها ، وهتفت :

ــ كلا . ليس هو المال الذى دفعنى !

فذهلت بولين وصاحت :

ــ اذن لاى غرض ؟ تكلمى !

فصمتت الفتاة وحنت رأسها . فاتقد بصر بولين، وأشرقت فجأة بصيرتها ، وانجابت السحب عن ذهنها . فأمسكت بالفتاة ، واجبرتها على أن تنظر اليها مواجهة ، وقالت :

ــ أهو الحب ؟ أهو أوجو ؟

فخارت قوى فرانسواز ، وتداعت أعصابها ، وغمغمت وهى تتهاوى وتسقط على ركبتيها :

ــ ارحميه ! انى أحبه ! أردت ان انقذه ! انه يجهل حتى الآن

كل شيء . كنت على موعد منه الساعة . هنا ... فى غرفتى. وسيأتى بعد قليل . فاشفقى عليه وعاقبينى أنا وحدى . انه برىء . أشفقى عليه وعاقبينى انا وحدى !

واذ ذاك دخلت هورتانس ومرجريت ، فبسطت فرانسواز ذراعيها ، وارتمت عند أقدام زميلتيها ، وظلت تردد كمخبولة:

ـ ارحما اوجو ! انى احبه ! لقد سرقت المستند من غرفة بولين لأنقذه . فاقتلننى ولكن اشفقن عليه !

فركلتها بولين بقدمها وصاحت :

ـ أين غدارتك ؟

فاقشعر بدن الفتاة وتراجعت . فرددت بولين صيحتها. فأومأت فرانسواز الى درج مكتبها الصغير . فعدت بولين اليه ، وأخرجت الغدارة وناولتها لمرجريت ، ثم ضمت أطراف غلالتها البيضاء على جسمها العارى ، وانطرحت على مقعد وقالت فى هدوء عجيب :

ـ سننتظر هنا مقدم الحبيب الظافر !

فغشى الدم وجه فرانسواز ، وتاهت عيناها فى العيون الثابتة ، فى العيون القاسية ، فى العيون الصلبة الجامدة المحيطة بها . وفجأة سمع صرير مفتاح يدور فى القفل . ثم فتح الباب ودخل منه الضابط أوجو

وما كاد يدخل حتى أسرعت بولين وأوصدت الباب خلفه ، وشهرت فى وجهه سلاحها ، وقالت :

ـ مكانك !

فبهت أوجو ، وقدح الشرر من عينيه ، وأدرك انه وقع فى كمين . فتحول نحو فرانسواز وقال وهو ينظر شزرا اليها، وصوته يمج حقدا وكراهية :

ـ اذن فقد كنت انت وزميلاتك جواسيس لرجال الثورة علينا ؟ انت .. انت يا فرانسواز .. انت التى احببتك الى حد

العبادة كنت جاسوسة لا امرأة !

والتفت الى بولين وقد فطن الى مركزها فى الجماعة ، واستطرد :

ــ ماذا تريدين منى . انا الآن رجل اعزل . ولكنك مهما هددتني فلن ابوح لك بسر يتعلق بعملى ، ويمكن ان يمس مصلحة الجيش الذى انتمي اليه !

فقالت بولين فى هدوء :

ــ السر معى ! المستند .. المستند الخطر ، المستند الاوحد الذى اودعته انت خزانتك ، كان قد وقع فى قبضتى !

فجمد الضابط وغاض دمه . ومضت بولين تقول وعلى شفتيها ابتسامة متهكمة ملؤها الوعيد :

ــ ولكن عشيقتك .. عشيقتك فرانسواز ، حاولت أن تسرقه منى لترده اليك وتنقذك . أجل ، أرادت أن تنقذك لانك فى نظرها أثمن من الواجب ، وأغلى من الثورة ، وابقى من الوطن !

ومالت الى فرانسواز ، وتفرست فيها لحظة ثم صبت فى اذنها هذه العبارات :

ــ ان عشيقك لامحالة هالك . وسيعدم غدا رميا بالرصاص فيجب أن تلحقى به أنت أيضا مادمت قد أحببته أكثر من بلادك ! ستموتين ! ولكن يجب أن تكفرى أولا ! يجب ان تكفرى عن خيانتك وحبك الاثيم بأن تقتلى .. تقتلى أنت .. أنت بنفسك .. هذا الرجل الذى فى سبيله خنت وطنك وانكرت واجبك !

فصرخت فرانسواز :

ــ الرحمة ! اقتلونى .. اقتلونى بدلا منه !

فقطبت بولين حاجبيها وقالت فى سكون !

ــ لا جدوى من الصراخ . وسواء أصرخت انت ام هو ، فهذا الجناح بعيد جدا ، ولن يسمعكما فى القصر اى انسان !

كونى شجاعة وفكرى .. لو خرج هذا الرجل حيا من هنا فسيقضي ولا ريب علينا جميعا ! فاقتليه انت بيدك تنقذى البقية الباقية من كرامتك وشرفك ، وتعربى ، بالفعل ، عن ندمك وتوبتك ويقظة ضميرك ! خذى !

وأشارت الى مرجريت . فدفعت هذه بالسلاح الى فرانسواز . وساد الصمت فترة . وطوى أوجو ذراعيه على صدره ، ونصب قامته ، وظل ينظر الى بولين نظرة ثابتة متحدية ملؤها الكبر والزراية وعدم الاكتراث

وأجالت فرانسواز بصرها الزائغ فى مرجريت وهورتانس. فالفت زميلتيها صامتتين جامدتين ، تحدقان فيها تحديقا متوسلا متلهفا ، كأنهما تبتهلان اليها أن تسمع وتقتنع وتطيع ، وتتفوق على نفسها وعلى حبها وعلى الحياة

فتحولت فرانسواز فى بطء نحو أوجو وارتجفت . ولبثت ترتجف وتلتقط أنفاسها وتلهث .. وعلى حين فجاة قالت بصوت متهدج متحشرج وهى تزفر وتتلوى كأنها تنتزع كلماتها انتزاعا من صميم احشائها :

ـ أوجو . انت تعلم انى احبك . ولكنك انت ايضا تقدس مهنتك وواجبك . ومن المحال ، من المحال ان تكرهنى يا أوجو اذا كنت اقتدى الآن بك ، وأؤدى لبلادى ونفسى بعض واجبى !

وتناولت السلاح من يد مرجريت واطلقت النار . ثم حولته من فورها الى صدرها . فسقطت هى الاخرى صريعة فوق جثة حبيبها

وعندئذ تقدمت بولين من الفتاتين الجامدتين الشاخصتين المأخوذتين ،وقالت لهما فى سكون زافر كالسكون الذى لايتخلل العاصفة الا ليعود فيلهبها :

ـ تعلمان ان معى جوازا ممهورا بتوقيع القائد يخول

لشخصين فقط حق اجتياز الحدود التي يرابط فيها جيش النمساوبروسيا فاليكما الجوز ، هذا هو ! اذهبا ! اذهبا الآن! اذهبا قبل أن تستيقظ هيئة القيادة ،واحملا المستند الى دانتون . أما أنا فسأبقى هنا ! سأبقى ! وعندما تنكشف الجريمة ، سأسلم نفسي ، وأقول أني كنت عشيقة الضابط أوجو ، وانه خانني مع فرانسواز فقتلته وقتلتها ! اذهبا !

فتراجعت الفتاتان وانتابهما من فرط الحيرة شبه ذهول وكانت الطاعة واجبة عليهما . وكانت الاوامر التي تصدرها بولين مقدسة في نظرهما ، ولكن حياة بولين كانت أعز لديهما من حياتهما ، وأثمن ، وأنفع ، وأجدر بالبقاء . فكيف يمكن أن تغامرا الآن بها ، وكيف يمكن أن تسلما بالامر الجائر يقضي على الزعيمة النابغة ويحرم الثورة من ذكائها وعبقريتها وخدماتها ؟

ولبثت الفتاتان مضطربتين ، تفكر كل منهما في المجاهرة بعصيان الامر ولا تستطيع . فصرخت بولين :

ـ اذهبا !

ولكن هورتانس ، هورتانس الوديعة الرقيقة ، هورتانس الجميلة الساحرة ، أصغر الفتيات الاربع سنا ، وأوفرهن حماسة ، وأشدهن تفانيا في الولاء والطاعة ، وثبت بغتة من مكانها ، ودنت من بولين ، وبسطت ذراعيها النحيلتين وقالت ونبرة التوسل والعزم تدوى في صوتها :

ـ أنا التي سأبقى هنا ! امنحيني هذا الشرف يا بولين ، ودعيني أمت في سبيل الشعب والثورة ! ما قيمتي بالنسبة لك يابولين ؟ أنا مهما حاولت فلن يكون في وسعي أن أخدم بلادي كما يمكن أن تخدمها فتاة مثلك ! لن نضحي بك والوطن أحوج ما يكون اليك ! لا . . أنا التي سأسلم نفسي لاأنت !

وأمسكت بيديها ، وجثت أمامها على الارض ورددت :

ـ امنحيني هذا الشرف يا بولين !

فقالت مرجريت فى صوت حاسم :

ـ لتمنحه منا من تشاء . أما هى فيجب أن تعيش !

فنظرت بولين الى هورتانس الصغيرة نظرة عطف وحنو واعجب . وكانت تحبها ولا تكاشفها بهذا الحب أبدا . كنت تحبها كأم رءوم ولا تعرب لها عن حبها ، كرها منها فى العواطف وما تولده فى النفس من تخاذل وضعف ، فلما سبقت الفتاة زميلتها ، وجاهرت بعزمها على التضحية ، واستمسكت بهذا العزم ، أكبرتها بولين وازدادت اعجابا بها ، وخافت لو خيبت سؤلها أن تلقى فى روعها انها تزدريها وتستخف بها . فدفعها حبها الشديد لها ورغبتها فى تقديرها وتمجيدها ، أن تجعل منها بطلة وشهيدة . فانحنت عليها ، وأنهضتها فى رفق ، ثم ضمتها الى صدرها ، وقبلتها فى جبينها ، وغمغمت :

ـ لك ذلك يا هورتانس !

فتألقت عينا الفتاة ، ولبثت تحدق الى الفضاء ساهمة وتائهة ومنتشية . فخيل الى زميلتيها انها قد ابتعدت عنهما، واتصلت بشيء أنبل واسمى منهما ، وان وجهها الجميل الرقيق قد اتخذ فى لحظة طابع القديسات ، وطوقته وغمرته فجأة هالة ساطعة من نور !



وفى صباح اليوم نفسه ، أعدمت هورتانس رميا بالرصاص، اما بولين فقد أسرعت بالمستند المسروق وسلمته الى دانتون . فاستعان به القائدان الثوريان « ديمورييز » و « كيلرمان » ، وتمكنا بعد بضعة اسابيع من احراز نصر ساحق على الجيوش البروسية النمسوية فى معركة « فالمى » المشهورة التى أفضت الى تقويض صرح الملكية والاقطاع ، وانتصار الشعب والحرية

ايطاليا

من أجل الزعيم

« تقع حوادث هذه القصة والقصتين التاليتين أثناء حرب الاستقلال الايطالية التى دارت رحاها فى سهول مقاطعة لومبارديا عام ١٨٢٠ بين الفدائيين المنتمين الى هيئات المقاومة السرية فى ايطاليا ، وبين وحدات الجيش النمسوى . وقد اشار المؤرخ هنرى لافورج فى كتابه عن « الوحدة الايطالية » الى حادث خارق وقع فى لومبارديا أثناء مقاومة عنيفة نظمها زعيم فذ جرىء من زعماء حرب العصابات يدعى اتيليو . وقد خلد هذا الحادث فى رسالة رائعة كتبتها الفتاة جوليانا الى الزعيم اتيليو . فرأيت ان انقل الرسالة كما هى متخذا منها مادة هذه القصة الاولى ».

من جوليانا الى الزعيم اتيليو :

« انى لارتعد خوفا من مجرد تصورى أنه يجب أن أبعث اليك بهذا الخطاب . ولكنى لاارتعد أبدا مما فعلت ، ولاآسف على ما فعلت ، ولا ينتابنى من جرائه أيسر احساس بالندم او الحسرة او تبكيت الضمير

أنا فتاة ، وأنا عاشقة . ولكنى فى تلك اللحظات المروعة نسيت انوثتى ، بل خنقتها عامدة فى اطواء صدرى ، ونسيت غرامى ، بل اخمدت شعلته عامدة فى حنايا ضلوعى . وهكذا لم أشعر الا بأنى مواطنة صادقة ، على واجب مقدس ينبغى ان اؤديه !

ولقد اديت واجبى على خير وجه وأكمله . أديته على أنقاض حبى ، وعلى اشلاء نفسى ، وعلى مذبح الوطن العظيم ، الذى اعتقد اعتقادا راسخا انك انت نفسك تحبه الف مرة اكثر مما تحبنى ، وتجود فى سبيله عند الاقتضاء بأعز الناس عليك واوثقهم صلة بك ، واقربهم الى روحك وقلبك ودمك !

ولو أنى أحسست لحظة واحدة أنك أقل منى وفاء لوطنك وايمانا بواجبك ، وتعلقا بشرفك ما اقدمت أنا على ذلك

العمل الفظيع الذى سأكاشفك به ، والذى لا يحمل فظاعته من مسلكى ، بل من مسلك صاحبه المجرم النذل الغـادر الشرير !

انت يا اتيليو زعيمنا ، وانت الذى حملت راية الجهاد فى وجه المستعمر النمسوى الذى اذل بلادنا ، وحرمها وحدتها واغتصبمنها اجمل مقاطعاتها ، وراح يمرح فى سهول لومبارديا الجميلة ، ويعيث فيها فسادا ، ويضرب على الوطن كله رواقا كثيفا من العبودية والطغيان والظلام !

انت الذى انشأت هيئات المقـاومة . وانت الذى نظمت حرب العصابات . وانت الذى نفثت فى الصدور الخائرة ، والعزائم الواهنة ، روح الشجاعة والبطولة والتضحية والفداء !

لهذا احببتك . لهذا عشقتك . لهذا اصبحت خطيبتك واقسمت أمام الله والناس ان اكون لك وحدك . ولكنى لا استطيع ان أضع حبك فوق حبى لبلادى ، ولا استطيع أن اوثر حبك على حبى لمبادئى ، ولا استطيع ان اغلب عاطفة حبك على عاطفة القيام بواجبى المقدس نحو وطنى ، هـذا الواجب الذى تدعو اليه انت بوصفك الزعيم ، والذى أعرف منك انك لم تتسامح ولن تتسامح فى تأديته ولو هلـكت ! فباسم هذا الواجب ، الذى تعلمت قداسته منك ، اقدمت على ارتكاب ذلك العمل المروع بقلب هادىء ، ونفس ساكنة ، وعزم ثابت مطمئن

فاسمع الآن ما حدث اثناء غيابك . ارهف السمع جـيدا وسامحنى . سامحنى لانى لم افعل الا ما كان لابد أن تفعله انت لو كنت مكانى . ولقد فعلته وانا متأهبة لانكار نفسى ، والتضحية بحبى ، وتقبل الموت من اجلك ومن اجل وطنى !

هذا ما وقع فانقشه فى صفحة خيالك . وعسى ان يشفع لى فيه عندك حرصى على واجبى ، فيظل حبك لى عنيفا قويا

ثابتا حتى بعد ان اكون قد فارقت هذه الدنيا وحرمت نعمة النظر اليك والاعجاب بك يا حبيبى ! !

منذ ان تعقبك البوليس النمسوى واراد أن يلقى القبض عليك ، ومنذ ان رحلت عنا الى ميلانو ، وفررت الى كوخ ذلك الفلاح المجاهد الذى اخفاك عنده ، منذ ذلك الوقت اى منذ شهرين ، والبوليس يبحث عنك ، ولا يكف عن تفتيش جميع البيوت فى لومبارديا ولكن من غير جدوى

ولقد اقتحم بيتى مرة ، واقتحم بيتك انت ثلاث مرات . ولما يئس من العثور عليك ألقى القبض على شقيقـك ، على الكسندرو ، وشرع يعذبه ليعترف

والحق ان الكسندرو كان فى مبدأ الامر عظيما . احتمل التعذيب دون ان ينطق بكلمة . كان مثال الشجاعة والصبر والتضحية . كان جديرا بك وخليقا بالانتساب اليك . بيد انه لم يكد يخرج من السجن حتى تبدل . اثرت فيه قسوة التعذيب ، واشاعت فى خلقه الثابت المتين ضربا من الرخاوة والبلادة ، تطورتا شيئا فشيئا واستحالتا على مر الزمن الى انانية عميقة ، شابتها عوامل الخوف والجبن والتواكل والاستهتار

اجل انقلب ذلك الشاب المجاهد المغامر ، من بطـل الى انسان مسلوب الارادة والكرامة ، لا يفكر الا فى نفسه ، ولا يحرص الا على سلامته ، ولا ينشد فى هذه الحياة سوى المتعة البدنية الوضيعة والعرض الدنيوى الزائل !

وكان الكسندرو يحب « الفيرا » كما تعلم . وكان قد انفصل عنها تحت تأثيرك انت وكان فى صميم نفسه يحقد عليك ، لانك تكرهها وتتهمها بضعف الخلق ، ونقص الوطنية ، وفساد السيرة ، وتأبى أن تزوجه اياها . فلما خرج من سجنه ضعيفا مستخذيا ، تواقا الى متع الحياة ، وشبه نادم على

تضحيته ، ثم تلفت حواليه فلم يبصرك امامه ، التهب حبه القديم ، فعاد الى الفيرا ، اشوق ما يكون اليها ، واطوع ما يكون لغرائزها ، تلك الغرائز الشائنة الجامحة العنيفة ، التى كنت تكرهها انت فى تلك الفتاة ، والتى طالما حذرت شقيقك من عواقبها

وانقاد الكسندرو لتاثير الفيرا انقيادا أعمى . لم يعد يحفل الا بها ، ولم يعد يهتم الا بارضاء غرائزها ونزواتها

ولقد ختم حبه على بصره الى حد أنه كان يستخف بالاوامر التى كان يصدرها اليه « الشيخ ريناتو » الذى عينته انت نائبا عنك ورئيسا علينا اثناء غيبتك . بل لقد كان يروغ من تلك الاوامر ، ويعصاها ، ويحاول بكل ما أوتى من دهاء ومكران يسفهها ، ليتجنب الاخطار التى يمكن ان تصيبه فيما لو أقدم على تنفيذها

وكان الحب قد افقده صوابه ، فعلمته الفيرا كيف يخاتل ، وكيف ينافق ، وكيف يتهرب ، وكيف يعاقر الخمر ، ويلعب الميسر ، وينشد المتعة ، ويستهزىء بكل مبدأ رفيع ، وكل جهد نبيل فى هذه الدنيا

تجاه هذا التدهور المنكر ، حاولت انا ان اصلح ، ان انبه ان احذر . ولكن الكسندرو كان يزجرنى ، ويسخر منى ، ويحتقرنى ، ويصارحنى فى وقاحة وفى غير ما استحياء انى اذا كنت اريد ان اربح الاوهام واخسر الحقائق ، فهو لن يقتدى ابدا بحمقاء مثلى ، ولن يبيع الواقع الحى ابدا فى سبيل خيالات واحلام

وتحطم كفاحى على صخرة عناده ، بل تحطم قلبى على صخرة غلظته ووقاحته . ذلك لانى كنت اعلم انك تحبه ، وانك تثق فيه ، وانك ربيته كولدك ، وانك تؤمن ايمانا راسخا متأصلا عميقا بانه صورة حية منك . بيد أن الكسندرو لم

يفهم ولم يقدر ، وأمعن فى غيه حتى وقع مالم يكن فى الحسبان

اشتد يأس البوليس النمسوى من امكان العثور عليك ، فاعلن فى الصحف عن مكافأة مالية كبيرة لمن يرشده عنك

ولم يكد يظهر هذا الاعلان المشئوم الذى لابد ان تكون قد قراته ، أو سمعت به ، حتى احسست انا ان روحا جديدا قد بدأ يحتل شخصية الكسندرو ، وأن شيئا خفيا ، شيئا فظيعا قد بدأ يتحرك على مقربة منى ، ويدب دبيبا مروعا فى كل نظرة أو اشارة تصدر من أخيك أو من حبيبته الفيرا

وانطوى الكسندرو على نفسه ، وشاعت الجهامة فى خلقه ، وافترسته عوامل الحيرة والقلق والتخبط والهم . اما الفيرا فقد كنت الاحظ انها تحثه ، وتشجعه ، وتستنهض همته ، وتدفعه الى شىء يجذبه ويستهويه ، وان كان فى الوقت نفسه يخيفه ويذعره

وساورتنى الريب والشكوك ، ولم اشأ ان أصدق ، بل لم اشأ أن أتصور . فراقبت العاشقين جهدى ، وتجسست عليهما ما وسعتنى حيلتى

وفى ذات ليلة ، فى ذات ليلة ساكنة كالغدر ، مظلمة كالخيانة غاشمة كالقدر ، غافلت العاشقين وهما فى بيتك ، ورأيتهما يدخلان مخدعك . فأسرعت وصعدت الى صومعة الغلال ، ثم هبطت الى الحديقة بعد لحظات ، ثم انبطحت على الارض فى الظلام الدامس ، وطفقت ازحف حتى اقتربت من نافذة المخدع . فأرهفت اذنى ، وسمعت كل شىء !

سمعت الفيرا تحرض شقيقك على الوشاية بك ، وتمنيه بالمكافأة المالية العظيمة التى جعلها البوليس ثمنا لراسك ، وتزين له الحياة الآمنة الرغدة فى صحبتها خارج ايطاليا . ثم رايته هو . . الكسندرو . . يضمها الى صدره فى عنف ، ويقبلها قبلة طويلة محمومة ، ثم يشيعها الى الباب وهو يطيب خاطرها

ويقسم لها أنه سيذهب الى ادارة البوليس الليلة ، فيرشدها عنك ، ويقبض المكافأة ، ويعد العدة لتنفيذ الخطة المرسومة والرحيل عن ايطاليا

وانصرفت الفتاة ، وظل الكسندرو واقفا بعتبة الباب يتبعها النظر ويفكر . وكنت أنا قد اسرعت بالصعود الى الصومعة فلما اختفت الفيرا ، وعاد الكسندرو فدخل البيت ، هبطت ثانية وأنا ارتجف ثم خارت قواى بالرغم مني ، فتباطأت لحظة وانتظرت . لا أدرى لماذا انتظرت ! كنت مبهوتة . كنت مذهولة كنت كمن فوجيء بضربة هائلة على رأسه أعمته وصرعته . لم استطع أن أتحرك . جمدت فى مكانى وزايلتنى من فرط ذعرى كل قدرة على العمل أو التفكير

وفجأة ابصرت الكسندرو يرتدى معطفه ، ويلبس قبعته ، ثم يدس خنجره فى ثنايا حزامه الجلدي ويغلق أبواب البيت الداخلية ويتهيأ للخروج . وكانت حركاته حاسمة ، وخطواته ثابتة ، وروح العزم تنبعث من كيانه ، وتجال طيفه ، وتتدفق على كرائحة متعفنة كريهة تأخذ بمخنقى . فلما رأيته يدنو من الباب الخارجي ويهم بأن يوصده خلفه ، دبت الحياة فى أعضائى كوقد النار . فهبطت السلم مسرعة واعترضت طريقه ، وصحت به وأنا أختلج :

ــ إلى اين انت ذاهب ؟

فحملق فى مذهولا وتمتم :

ــ أنت هنا ؟

فصرخت فيه وأنا ممسكة بذراعيه ، أدفعه الى داخل البيت :

ــ لقد رأيت وسمعت كل شيء يا الكسندرو ! لن تذهب ! لن ترتكب هذه الجريمة الفظيعة ! لن ادعك تخون وطنك وتغدر بأخيك من أجل امرأة! انه اكثر من أخ لك . انه والدك .

انه زعيمك . بل هو زعيم كل مواطن حر تظلله سماء لومبارديا . ولو تركتك تشى به ، وترشد عنه ، فانا ، انا التى اعتبر نفسى مواطنة مجاهدة قبل ان اكون امراة ، وقبل أن أكون عاشقة ، انا اصبح شريكتك فى الجريمة ، شريكتك فى قتـل زعيم بطل احوج ما تكون اليه بلادى فى صراعها المرير ضـد المستعمر الغاصب . فثب الى رشدك ياالكسندرو واذكر ماضيك ! لقد كنت انت ايضا مجاهدا فذا يشق طريق العذاب متجهـا صوب البطولة ! فانبذ تلك المراة واستفق ! لا تلوث شرفك ومجد اخيك ! لا تقض على زعيمنا ، والا هدمت صرحا شاهقا من صروح جهادنا ، واخرت تحرير بـلادك ، وكنت حليف المستعمر الغاصب على وطنك التاعس المسكين !

وانحنيت على يديه ، وشرعت اقبلهما وانا أتوسل اليـه وابكى . ولكنه كان جاحدا ، كان تائها ، كان كأنه يفكر فى كلامى ويفكر فى الفيرا . وبغتة قطب حاجبيه وضم شفتيه ، فخيل الى أنه يجاهد ليتغلب على نزعة الشر المتمكنة من نفسه . غير انه ارسل غمغمة طويلة ، ثم مد ذراعيه المتشنجتين ، وقبـل ان اتنبه ، انقض على ، واشب اصابعه فى عنقى ، فارتعـدت فرائصى ، ولمحت نية القتـل فى عينيه . فاستجمعت قواى ودفعته عنى فثارت ثائرته ، وتشبث بى ، فعضضت على يده بأسنانى ، فطاش صوابه ولطمنى ، ثم عاد فقبض على عنقى . فغافلته وانا اكافح ، وانتزعت خنجره من بين ثنايا حـزامه الجلدى ثم اغمدته فى صدره وانا لاأعى !

وانهار مضرجا بدمه امام عينى . فلم اكترث ، ولم ارتجف، والقيت الخنجر بجوار الجثة ، وانطلقت اعدو فى اتجاه بيتى

وكانت القرية راقدة ســاكنة . وكان الشارع الضيق ميتا هامدا لا يسمع فيه غير حفيف الشجر الجاثم فى غير مبالاة على حافة الجدول ، فتلفت حولى ، فلم أبصر أحدا ، فأبرقت

اساريرى على الرغم منى ، ودخلت بيتى ، وأنا ازفر والهث !

ولم يفكر أحد فى اتهامى . لم تحم حولى اية شبهة . مثلت دورى على أكمل وجه ، فبكيت القتيل ، ولعنت المجرم ، وظهرت بمظهر الفتاة التى سحقها الالم والحزن ، فخدعت الجميع حتى الفيرا

خدعتهم ولكنى لم أستطع ، واأسفاه ان أخدع نفسى ، كما لم أستطع أن أفكر أن فى وسعى ان أخدعك أنت أيضا ياحبيبى لقد قتلت أخاك ! قتلت أقرب الناس اليك ، وأحبهم الى قلبك واعزهم على نفسك ، أجل . قتلته من اجل غرض عظيم . قتلته انقاذا لمبدئك ، وحرصا على جهادك ، وابقاء على عملك وذوداعن عبقريتك ، ودفاعا عن حركة التحرير المقدسة التى لا غنى لها عن زعامتك ! قتلت أخاك لا من اجلك بوصفك خطيبى وحبيبى ، بل من أجلك بوصفك زعيم لومبارديا . قتلته من أجل الزعيم ومع ذلك فالحقيقة لا تحجب الواقع المروع . فالواقع المروع هو أنى قتلت أخاك . طعنتك فى شغاف قلبك مزقت لحمك ودمك فكيف ، كيف أستطيع بعد الان أن أحبك وانشد حبك ، وأصبح فى يوم من الايام زوجتك ، وجثة شقيقك بيننا ، وطيفه يحلق علينا ودمه يصبغ ماضينا ، ويسمم فى المستقبل حبنا وحياتنا؟ قد تقول فى نفسك : « انها كاذبة ومنافقة . لقد قتلت الخائن لا عن وطنية بل عن حب . قتلته لا لتنقذ حياة الزعيم بل لتنقذ حياة حبيبها ومعشوقها » وهكذا تطعننى فى صميم وطنيتى فيزداد حقدك على وكرهك لى

هذه الافكار جميعا طافت بذهنى ، واستبدت بخيالى فشعرت أن عقلى يوشك ان يفلت منى ، وان الجنون يتربص بى ويقف لى بالمرصاد

فماذا فعلت لانقذ نفسى ، وانقذك منى ، واثبت وطنيتى ، وأؤكد أنى لم أقتل المجرم من أجل غرض شخصى ، بل من أجل

غرض عظيم ؟ فكرت فى التضحية بنفسى ، فكرت فى الانتحار ولكنى عدت فثبت الى رشدى ، وقلت ان الانتحار هزيمة فاضحة ، وانه لن يبرئنى ، ولن يكشف عن حقيقة نيتى ،ولن يعزز شعور الوطنية الذى كان يملأ ساعة القتل صدرى . واذن فلا بد لى من عمل خارق يودى بحياتى ، وينقذنى ، ويؤكد فى الوقت نفسه صدق وطنيتى

اجل . أردت ان أموت لاجنبك فظاعة قربى ، واجبرك على الايمان بخالص وطنيتى . فحزمت أمرى وقررت !!

وكنت أعلم ان نائبك الشيخ ريناتو قد أصدر أمره الى أحد الفدائيين من اخواننا بأن ينطلق تحت جنح الظلام الى معسكر الفرقة النمسوية ، وان يلقى قنبلة يدوية على خيمة قائد الفرقة ومساعديه . وكنت أعلم ان من اليسير على ذلك الفدائى البطل ان يتزيا بزى اعدائنا ويؤدى مهمته . ولكن كنت أعلم أيضا انه لابدأن يقتلأثناءالعودة برصاص « ديدبانات »الليل . فأسرعت من فورى ، وذهبت الى النائب الشيخ ، وقصصت عليه قصتى ، وطلبت اليه ، وأنا التمس واتوسل ، ان يمنحنى شرف القيام بتلك المهمة ، وان احل محل الفدائى البطل

واضطرب الشيخ وبهت . ولكنه بعد أن فكر مليا ، ابى أن يجيبنى الى سؤلى ، وقال لى : « هذه المسألة من شأن الزعيم اتيليو انه خطيبك وهو وحده الذى فى وسعه أن يقرر مصيرك فاكتبى اليه واستأذنيه ، فان اذن لك أطعته أنا وعاونتك على تنفيذ امره ! »

وتركت الشيخ ثائرة مهتاجة وعدت الى دارى ، ثم شرعت اكتب اليك هذا الخطاب ، هذا الخطاب الذى لا مفر من أن يكون خطاب وداعى . فاسمع الآن يا حبيبى . لابد .. لابد أن تجيبنى انت الى سؤلى ، ولابد أن تعهد الى بتلك المهمة العظيمة التى فيها خلاصك ومجدي ! واعلم أنك اذا رفضت رحمة بى وابقاء على حياتى ، فسأقضى انا بنفسى على نفسى ،

وتكون انت قد دفعتني الى موت حقير وضيع لا يبرئك امام ضميرك ولا يشرفني ! فلا تدعني انتحر وامت رخيصة وانقذني! هب لي هذه السعادة اذا كنت ما تزال تحبني ! وثق اني سأموت مطمئنة القلب ، ناعمة البال ، متى ايقنت ان حكمك قد انقذك وانقذني ، وان حبك قد حفظ على كرامتي ، وآمن ايمانا مطلقا بصدق وطنيتي وجهادي

اقبلك من صميم فؤادي . اقبلك وانا لا أريد ان اضعف واتمزق وابكي . فاياك ان تضعف انت وترحمني ، الرحمة الحقيقية هي ان تصدر على حكما بالبطولة لا حكما بالتراجع والجبن والشقاء . انا في انتظار كلمتك المنقذة . والوداع ! »



وحمل احد المجاهدين رسالة جوليانا الى الزعيم اتيليو . وبعد ثلاثة أيام عاد الى الفتاة بهذا الرد الموجز :

« أحبك يا جوليانا ولن أعرف بعدك امرأة . انت بالعقل والقلب والروح زوجتي الى الابد يا جوليانا . انك لم تقتلي اخي بل قتلت مجرما . ومع ذلك فأنا اقول لك اذهبي وأدي مهمتك . واذا كنت احطم اليوم قلبي واضحي بك ، فأنا انما اضحي بك من فرط حبي لك ، واشفاقي عليك من حياة تقضينها في صحبتي ، بينما ضميرك يمزقك ويابى عليك الا ان تعتبري ذلك المجرم النذل أخي ! انا نفسي وضعت رأسي على كفي ، وقد اموت اليوم أو غدا ، والحق بك ! فلا مفر لي من ان انزل على حكم ارادتك يا جوليانا وانا أقبلك عن بعد واتقطع . فالوداع ياحبيبتي .. اما الفيرا فقد أصدرت أمرى بشأنها »

وبعد بضعة ايام وجد القرويون الفيرا مقتولة وملقاة في أحد الحقول . اما جوليانا فقد تسللت تحت جنح الظلام ، وقامت بمهمتها على خير وجه . فألقت القنبلة وأصابت قائد الفرقة ومساعديه ولكنها بعد ذلك لم تعد !

روسيا

عندما يثور العبيد

« تقع هذه القصة فى روسيا وفى عهـــد الاقطاع ، وتمثـــل جشـــع الاقطاعيين واســـتبدادهم بفلاحيهم وتشبثهم بنظام الرق ، كما تمثـــل انتقاض فلاح بائس مسكين ، وثورته على الجور والظلم »

كانت الريح تصفر صــفيرا يصــم الآذان ، وكانت المركبة الواسعة تنساب على الجليد أنسيابا ، والريح تدفعها ،والجواد الشكس الحرون يجرها فى حنق وهو يصهل

وكانت الظلمة الحالكة منتشرة على القرية الروسية ، كرداء اسود كثيف يغطى الارض اللينة المتموجة البيضاء ، ويوشك ان يتمزق كلما دوى الرعد ، ولمع البرق ، وانهمر المطر

وصاح الكونت لاديسلاس وهو يلهب ظهر الحوذى بسوطه:

ــ اسرع .. اسرع أيضا يا فيدين والا افترستنا الذئاب !

واستدار متلفتا فأبصر الذئاب تعدو خلف المركبة ،وتعوى عواء مزعجا . فاستشاط غضبه ونهض ثائرا متوعدا ، وجعــل يضرب الحوذى بقبضته تارة ، وبالسوط اخرى ، ويصخب ويلعن ويهدد

وكانت سونيا زوجته قابعة فى ركن من المركبة ، شاحبة اللون . شاخصة البصر ، ترتعد قلقا وخوفا ، وبالقــرب منها الفلاح بوريس ينظر اليها نظرة ساهمة تائهة عابدة ، ويعض على شفتيه من فرط الحسرة ويكاد يبكى

واشتد عواء الذئاب ، فأرسلت سونيا صيحة مستغيثــة ، فأخرج الكونت مسدسه وشرع يطلق الرصــاص على الذئاب

وكان قد نصح له الحوذى بالا يفعل ذلك خشية ان تثور تلك الحيوانات المفترسة فيشتد عدوها وتنقض على المركبة، ولكن الكونت لم يحفـــل ومضى يطلق الرصاص ، فاهتاجت

الذئاب ، واندفعت نحوهم ، واوشكت ان تلمس المركبة . وعندئذ خارت قواها فسقطت على الجليد صريعة ما خلا ذئبا واحدا لم يصبه الرصاص . فظل يعدو فى ثبات وغيظ واصرار كأنه يأبى الا ان يثأر لرفاقه ولو استهدف هو للخطر وقتل

واهابت سونيا بزوجها ان يعجل بالقضاء على الذئب . ولكن الكونت لاديسلاس كان قد استنفد كل ما معه من رصاص . فارتاعت سونيا ، واصطكت اسنانها فرقا ، وصرخت :

ـ الق فى الطريق بكل ما تحمل المركبة ، وهكذا يخف حملها فيستطيع الجواد ان ينهب بها الارض ، ويسبق الوحش المفترس !

فصاح الكونت :

ـ وسبائك الذهب ؟ انها تمثل كل ما املك ! كل ثروتى ! كل ما سأخلفه لولدى الوحيد !

فقالت سونيا والذعر يخنقها :

ـ الق الان بأكوام الملابس والهدايا وكل ما اشتريناه من بطرسبرج !

فأذعن الزوج وهو يصخب . وطفق يقذف بالعلب الكبيرة الى الارض . فخف حمل المركبة قليلا وتنفس الجواد . ولكن الذئب لم يبتعد ، وظل يركض حتى مس راسه طرف المركبة فصرخت اولجا :

ـ الق ببعض صناديق الذهب . انقذنا . انقذنى يالاديسلاس !

فهم الكونت بالاذعان مرة اخرى ، ولكنه اضطرب واحجم وتوقف . عز عليه ماله ! عزت عليه ثروته ! وكبر عليه ان يتحداه القدر على هذه الصورة وان يسلبه فى غمضة عين كل

مأ يملك . فانزوى فى جوف المركبة ، وقطب حاجبيه تقطيبا شديدا مروعا ، ثم حدق الى الفلاح بوريس ... حدق اليه فى سخط وكراهية وبغض ، حدق اليه فى لذة وشماتة وحقد ، ثم صاح به وهو يركله بقدمه :

ـ اقفز ! اقفز من المركبة يا بوريس !

فصرخت سونيا :

ـ لا . ليس من حقك ان تقتله !

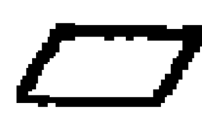
فرمقها الكونت بنظرة صاعقة وهتف :

ـ اقفز يا بوريس !

فجحظت عينا الفلاح المسكين ، وانتفض رعبا . ولكن الكونت لاديسلاس انقض عليه ، وامسك به ، ثم دفعه بكل قوته . فسقط الرجل على الجليد وهو يجأر ، بينما كانت المركبة وقد تخففت من حملها ، تنطلق فى عنف مخبول اشبه بطائر أفلت من عاصفة

وافاق بوريس من غشيته ، فألفى الذئب امامه ، مكشرا عن انيابه ، متجها نحوه ، يعوى عواء التعب والحنق والجوع فتقهقر ، وتحفز ، ثم استل خنجره ، وهجم على الذئب . فأنشب الوحش انيابه فى صدره . فطمنه بوريس . فاهتاج وكر عليه . فسدد اليه الطعنات وهو يراوغه ، حتى غافله وتمكن منه واغمد الخنجر فى عنقه

وانهار الذئب على الجليد مضرجا بدمه . وانهار بوريس بالقرب منه وهو يلهث . وظل فترة طويلة يتقلب على الارض ويئن من فرط الالم ، ولكنه ما ان ابصر الفجر يطلع ، حتى استرد قواه ، فتحامل على نفسه ، وطفق يزحف والدم ينزف منه ، حتى اجتاز القرية ، ووصل الى مزرعة سيده الاقطاعى النبيل الكونت لاديسلاس



كان ذلك فى روسيا ، عام ١٨٦٠ ، فى عهد القيصر اسكندر

الثانى ، وكانت روسيا اذ ذاك خاضعة لنظام اقطاعى غاشم ، وكان الاشراف هم السادة ، والفلاحون عبيدا أرقاء لهم

ولقد حاول نفر من المثقفين الاحرار تبديل ذلك النظام ولكنهم اصطدموا بالاشراف أصحاب الجاه والسلطان الذين كانوا يتملقون القيصر ، ويتظاهرون بالدفاع عن حقوقه ، وهم يدافعون فى الواقع عن مصالحهم وامتيازاتهم ، وعن الضيعات الواسعة التى كانوا يستثمرونها على حساب الفلاح

فالفلاح لم يكن انسانا ، ولم يكن مواطنا ، بل كان جزءا من الارض يباع ويشترى معها ، فاذا اسعده الحظ وخدم سيدا طيب القلب ، فقد ظفر بقوت يومه وأمن على مستقبله ، واذا أوقعه نحس الطالع بين مخالب سيد طاغية مستبد ، فالظلم المروع يصبح مادة حياته

وهكذا كان بوريس مثال الفلاح المظلوم ، وكان الكونت لاديسلاس مثال السيد الاقطاعى المستبد الطاغية

ولقد اخلص بوريس فى خدمة مولاه كما كان يخلص رفاقه الفلاحون . ولكن لاديسلاس كان غليظ النفس ، متحجر القلب ، صلفا متغطرسا قاسيا طماعا ، يأبى الا أن تدر عليه أرضه أعظم انتاج ممكن ، ويأبى الا أن يستخلص هذا الانتاج من عصارة دم فلاحيه

على أنه لم يكن فى مقدور بوريس الا ان يصبر على هذا الشقاء ويحتمل . ولقد صبر بالفعل طويلا ، واحتمل طويلا ، وذاق مرارة الذل والاضطهاد والاستغلال أكثر من عشرين سنة وهو صامت .

نشأ عبدا للاديسلاس ، ثم شب وترعرع وأصبح رجلا وهو ما يزال عبداً للاديسلاس

ولقد ضاق آخر الامر ذرعا بهذه العبودية ، فأراد أن يعيش فلم يجد متنفسا لصدره الا فى تعلم القراءة والكتابة خلسة

على يد كاهن القرية ، ثم فى عاطفة الحب ...

احب فلاحة من طبقته . احب عبدة مثله . احب سونيا الشائقة الفاتنة ، التى كانت تعمل هى وجدها ووالدها واخوتها واخواتها فى مزرعة مجاورة ، يملكها ويملك الفلاحين معها ، سيد ملحوظ المكانة من اشراف روسيا ومن أقرب المقربين الى بلاط القيصر

وكان هذا الحب أعظم حدث فى حياة بوريس . كان عزاءه وملجأه ، ونعيمه وملاذه ، ورجولته ووهم حريته . فصارح به مولاه ، والتمس منه وهو يقبل موطىء قدميه أن يزوجه بسونيا

وما زال بلاديسلاس يستعطفه تارة ، ويتفانى فى خدمته أخرى ، حتى تحركت عواطف السيد ، فاتصل بجاره الشريف، وطلب اليه يد سونيا لبوريس

ولم يكن لاديسلاس قد راى الفتاة . فلما تمت خطبتها ، وقدمت الى مزرعته ، راعه جمالها الباهر ، وحسنها الغض ، وبراءتها الساحرة الضعيفة الطيعة

وكان لاديسلاس اعزب فى نحو الخمسين ، لم يفكر قط فى الزواج ولا فى الابوة لفرط انصرافه الى جمع المال ، والتمتع بمختلف اللذائذ المحرمة فى ظل الحرية . فما أن أبصر سونيا حتى انفجرت عواطفه المكبوتة فأحبها هو الآخر كما احبها بوريس !

أحبها فى جنون المستبد ، وفى صولة الطاغية ، وفى هوس الكهل المتحرق على الشباب . ففكر فى ان يتخذها خليلة . ولكنه كان غيورا الى ابعد حد ، مولعا بالحيازة والاستئثار والتسلط . فآثر ان يقهر كبرياءه ، وينزل عن مكانته ،ويدوس جميع مقدساته ، ويسلب الفلاحة الوضيعة من بوريس ، ويتحدى الناس جميعا ويقترن بها

وفى ذات يوم حزم أمره ، واستدعى اليه بوريس ، ثم أعلنه بعزمه . فذهل الشاب واختبل ، ولم يستطع الا أن يطأطىء الرأس ذليلا صاغرا

واقترن لاديسلاس بسونيا ،واعقب منها طفلين ذكرا وانثى، احبهما الى حد العبادة ولا سيما الطفل « بافيل » الذى كان يمثل فى نظر والده ثمرة الحب ، وهدف الثروة ، وغاية الدنيا

وبدل ان تولد الابوة فى نفس لاديسلاس عواطف الانسانية والرحمة ، الهبت فيه شعور الكبر والخيلاء فأمعن فى الظلم ، واوغل فى الاستبداد ، وزينت له غيرته المرضية ان يتخذ من بوريس التاعس الحظ فريسة له

وكان يستشعر حبه الصامت العميق لسونيا ، فكان يضطهده ليثار منه ، وينكل به ليتشفى فيه ، ويتعمد ملاطفة سونيا وتقبيلها أمامه ، كي يحقره ويذله ، ويضاعف احساسه بأنه عبد رقيق لاحق له فى الحب ولا فى الحياة . وكان يفرض عليه اشق الاعمال ، ويجد لذة وحشية فى اهانته ، والسخرية منه ، والانتقاص من قيمة عمله ، واهداركرامته أمام الفلاحين

وكان يتخذ منه مسخاله ومهرجا . فيصطحبه فى رحلاته ، ويأمره بتسليته ، ويسومه جهد اضحاكه وادخال السرور على قلبه

ودامت هذه الحياة سبع سنوات ، فكبر الصبى بافيــل ، وكبرت معه رغبة لاديسلاس فى جمع المال من أجل ولديه

واذذاك استفاضت الانباء بأن القيصر على وشك أن يعلن الحرب على تركيا ، فلم يتردد لاديسلاس ، واسرع فانتهــز الفرصة ، وباع معظم أراضيه ، ثم ســافر الى بطرسبرج فى صحبة امرأته وبوريس واشترى سبائك ذهبية ، وعزم أن يبيعها قبيل اعلان الحرب وارتفاع أسعار الذهب

ولقد كللت رحلته بالنجاح ، فأنقذ نفسه ، وأنقذ امرأتــه

وسبائكه ، وأن كان قد ضحى بمهرجه وعبده المخلص بوريس ، والقى به طعاما للذئاب !

هذا ما كان يفكر فيه لاديسلاس الان ، وهو يتجول فى مزرعته على ظهر جواده ، وخادمه يدعوه ليتناول طعام الافطار ، وابنه باقيل يصفق له عن بعد ، ويستعجله كى يدخل البيت

وكان يتأمل مزرعته فى كبر ، ويفكر فى المستقبل فى ثقة ، وينظر الى الوادى السحيق الماثل خلف الربوة المتاخمة للمزرعة ، نظرته الى الماضى الأجوف الذى عاش فيه قبل أن يعرف الحب ، وقبل ان يعرف سونيا ، وقبل أن تكتحل عيناه بمرأى ولده الحبيب الجميل باقيل

والقى على الوادى السحيق نظرة اخيرة ، وهز كتفيه مستكبرا متحديا ، ثم أعمل المهماز فى خاصرة جواده ، وانطلق يعدو صوب البيت ، ولكنه ما كاد يشرف عليه حتى بهت وتراجع . ثم توقف وترجل وجمد

أبصر بوريس يجر نفسه جرا ، ويزحف على الارض كالسلحفاة ، ويدخل المزرعة ممزق الصدر ، صائحا والدم ينزف منه :

ـ اماه ! اماه ! أريد ان ارى أمى قبل أن اموت !

واقبل الفلاحون واحاطوا به . وبرزت امه العجوز من بين صفوفهم ، محلولة الشعر ، زائغة العينين ، وارتمت عليه صارخة :

ـ ولدى ! ولدى ! مابك ؟ انت جريح ! استفسرت عنك فقال لى السيد انك تخلفت فى بطرسبرج لقضاء بعض شئونه ! فالى اين ذهبت ؟ وكيف جرحت ؟ وهل اعتدى عليك احد ؟

فطوق بوريس أمه بعينيه ، ولفها بذراعيه ، وجعل يقبل خدها وشعرها وأناملها وهو يردد :

ـ سأموت ! سأموت يا أماه !

ثم أجال الطرف حوله ، فأبصر لاديسلاس يحدق عن بعد اليه . فوثب قلب بوريس فى صدره ، وغشى دم الحقد وجهه ، واشفق على جذوه حياته ان تخمد الى الابد فى رماد الذل والخنوع والتسليم . فأراد أن يكافح ولو مرة ، انينتقض ولو فترة ، ان يثور ولو لحظة • فاحتضن أمه ، واومأ بأصبعه الى السيد ، وصاح لاول مرة فى حياته صيحة الرجل الحر والانسان المعتز الطليق :

ـ هو ! هو الذى قتلني ! كنت بجواره ! فلما غافلتنا الذئاب القى بى من المركبة لينقذ نفسه وامرأته وسبائكه ! ولقد انقذها بالفعل ومضى • اما انا فقد صارعت الوحش حتى قتلته قتلته ولكنه مزقنى • وهأنذا اوشك أن أموت فاذا مت فاعلموا •• اعلموا جميعا أن لا ديسلاس هو الذى قتلنى !

فارتجف الفلاحون وتطلعوا الى سيدهم

وكان القانون يعاقب صاحب الارض اذا قتل احدا من فلاحيه . ولكن لاديسلاس لم يضطرب ولم يحفل ، يقينا منه بأن التهمة لا يمكن أن تثبت عليه بدون شهود ، وان من المحال ان يجسر الحوذى البائس المسكين على اقرارها ، او تفكر سونيا لحظة واحدة فى توكيدها على حساب زوجها وولديها ونفسها

بيدان هذه الجرأة الوقحة من بوريس ، احنقت لاديسلاس واثارته • فكبر عليه ان يتهم أمام عبيده • فدنا من الحوذى وصاح :

ـ أنت •• انت يا من كنت تقود المركبة ! لقد رأيت بعينيك ما وقع ! أحق ما يقوله هذا المعتوه ؟

فارتعش الحوذى ، واحس ان سيده يحرجه متعمدا ، ويطلب اليه أن ينقذه من هذه الورطة • فانتهز الفرصة ليكسب عطفه ورضاه ، واجاب على الفور فى صوت اجش :

ـ هو بوريس الذى حاول أن يلقى بالسيد لاديسلاس من المركبة لتفترسه الذئاب ! حاول أن يثـأر منـــه لانه تزوج بسونيا • ولكن السيد تغلب عليه بعد صراع عنيف ولم يجـد بدا من التخلص منه فقذف به الى الارض !

فلمعت عينا لاديسلاس اعجابا وظفرا ، وهتف :

ـ ارأيتم الى هـذا المجرم المفترى ؟ كيف كان يمـكن أن ارحمه وقد كنت فى موقف الدفاع المشروع عن نفسى ؟ أمـا الآن وقد ثبتت عليه نية القتل فالقانون يخولنى حق عقابه ، ولو أسفر هذا العقاب عن موته ! انه من الثائرين علينا نحن الاقطاعيين • انه فوضوى !! •

فاختلج بوريس مســـتنكرا ، وصرخ وهو يئن من ألـــم جراحه :

ـ لست فوضويا ، ولا من دعاة أى نظام هادم !

أنا وجميع الفلاحين أمثالى ، لا نريد انظمة هادمة ، تتنكر لديننا ، وتفسد ضمائرنا ، وتسلبنا حريتنا ، وتحرمنـا حق التمتع بثمرة كدنا . نحن نطلب الغاء الرق . نطلب حقوقنا السياسية والمدنية . نطلب العدل الاجتماعى فقط . نطلب الكرامة والحرية !

فقال لا ديسلاس :

ـ انه منافق • وكلامه هذا يدل ابلغ الدلالة على مدى الثورة التى تضطرم فى صدره

والتفت الى نفر من فلاحيه واردف :

ـ اطرحوا هذا المجرم ارضا واجلدوه ! اجـــلدوه عشرين جلدة !

فصرخت الام العجوز وهى تجثو عند قدمى السيد :

ـ الرحمة • الرحمة يا مولاى !

واقبلت سونيا مستهولة ، وطفقت ترجو وتتوسل • وبكى

الصبى بافيل واستعطف هو الآخر والده • ولكن لا ديسلاس ركل العجوز بقدمه ، وانتهر امرأته والصبى ، واهاب بالفلاحين:

ـ ماذا تنتظرون ؟ هيا !

فأسرع واحد منهم ، والسوط في يده ، واخذ يجلد الشاب المحطم الممزق الجريح

وكان لاديسلاس يشهد المنظر وجواده يصهل بالقرب منه وابنه بافيل يبكى ، وصيحات بوريس والعجوز وسونيا تصم اذنيه • فلما اتى الفلاح على آخر سوط ، ارسل بوريس آنة طويلة مخنوقة ثم تداعت قواه ، وانهار على الارض • انهار على الارض كالكتلة الصماء ، فارتمت أمه عليه ، وجعلت تتحسسه فى جنون وتقبله وهى تردد :

ـ لم يمت ! لم يمت ! اسعفوه بكوب ماء !

فتقدم لاديسلاس ليرى . تقدم ليستمتع . تقدم ليتشفى . وعندئذ تململ بوريس وتحرك ، وفتح عينيه ، ونظر الى سيده نظر اليه نظرة لم يرها المولى فى عين اى عبد • نظرة مروعة • نظرة هائلة • نظرة فيها كل عذاب العمر ، وكل الحنق على الظلم ، وكل الثورة الجارفة الطاغية على الجور والاستبداد • فارتجف لاديسلاس وتقهقر • ولكن بوريس امسك بذراعه وتشبث به ونهض ! نهض بالرغم منه • نهض مدفوعا بقوة طارئة خارقة لم يعلم من أين واتته . نهض كالجبار ، واستقام كالطود ، وتلفت .. تلفت وهو مخبول . تلفت وهو دهش من يقظته ، مأخوذ بنشوته ، غير شاعر بجراحه ، مذهول من عزيمته وقوته وفكرته •• ولم يتردد ، وفى مثل ومض البرق ، دفع لادسلاس فى عنف ثم انقض على الصبى بافيل واختطفه ، ثم غافل الكل وأسرع الى جواد السيد فامتطاه ، وانطلق بالجواد والصبى الى قمة الربوة الواقعة فى مؤخرة المزرعة والمشرفة على الوادى السحيق ، وصاح بلاديسلاس :

ـ بافيل معي ! ابنك في قبضة يدى اذعن الآن بدورك لامرى والا القيت بولدك فى اعماق الوادى !

فاندفعت سونيا صارخة :

ـ بوريس ! لا • لا تقتل ولدى !

وهتف لاديسلاس :

ـ ارحم الطفل فهو برىء !

فقال بوريس وهو يهدر :

ـ اذن يجب • يجب أن يكون عقابك من جنس عقابى !

واهاب بالفلاحين :

ـ اجلدوه ! اجلدوه مثلى ! اجلدوه عشرين جلدة والا فابنه لا محالة هالك ! أطيعونى قبل ان يفوت الوقت !

فذعر الفلاحون ووجموا • ولكن لاديسلاس حنى رأسه صاغرا واسرع •• اسرع الى الفلاح الذى جلد بوريس ثم أولاه ظهره ، وصاح :

ـ اضرب ! اضرب سيدك ولا تخف !

فانهال السوط على ظهر لاديسلاس وهو ثابت • لم يصرخ لم يجأر . لم يئن . كان يحدق فقط فى ولده ويحتمل . كان يعض شفته من فرط الالم وينتظر • فلما اتى الفلاح على السوط الاخير ، وثب لا ديسلاس الى سفح الربوة كحيوان مطارد مطعون ، واهاب ببوريس :

ـ اعطنى الآن ولدى ! لقد رويت غليلك منى فكن شريفا طيب القلب وارحمنى ! لن امسك بسوء ! اقسم بالله العظيم انى لن امسك بسوء !

فنظر اليه بوريس لحظة ، ثم قهقه ، قهقه فى وحشية وصاح :

ـ انت كاذب ! ستنتقم منى غدا ! لابد أن تقتلنى غدا ! انا اعلم ان الموت مقدر على فى غد لا محالة • ولكنى لن اموت ابدا

بيدك • لن ادعك تفرح بانتقامك • هوذا الصبى •. هـــوذا بافيل • وانا ارده اليك لا لانه ولدك بل لانه ابنها هى •• ابن سونيا ، ابن حبيبتى ، المرأة المغلوبة على امرها التى اغتصبتها انت بعد أن سرقتها منى ! اليك الطفل

والقى بالصبى على الارض وهتف :

ـ الوداع يا سونيا !

ثم تحفز وقفز ، فسقط هو والجواد فى اعماق الوادى



وظل لاديسلاس اشهرا طويلة مسلوب الحول ، طائر اللب يفكر فى عذاب بوريس وتضحيته • فلما برح به وخز الضمير وتاقت نفسه الى شىء يكفر به عن جريمته ، اتصل بالمثقفــين الاحرار ، وانقلب من طاغية الى مصلح • ومـــا زال بالقيصر اسكندر الثانى ، يقنعه ويرشده ويهديه ، حتى استصدر منــه عام ١٨٦٢ مرسوما باعتاق الفلاحين ، ومنحهم حقوق المواطنين واعتبارهم بشرا كسائر الناس

وهكذا تحقق حلم بوريس ، ولكن بعد أن اصبح هو جثـــة هـــامدة

عصر النهضة

شهداء النور

« هذه القصة تمثل صورة من جهاد اخر ، هو جهـــاد العلم . جهاد الفكر البشرى الحر المستكشف الجرىء فى بحثه المطرد عـن الحقيقة والنور »

بعد ان اشرق عصر النهضة فى اوربا ووضع العالم العظيم « جاليليو » اسس العلم التجريبى فى ايطاليا ، وبعـد أن قال بأن الارض تدور حول الشمس ، واصدر فى فلورنسا عـــام ١٦٣٢ كتابه المشهور الذى ايد فيه نظريته ، استهدف لنقمـــة « محكمة التفتيش » التى اضطهدته ، واقصته عن العالم ، وفرضت عليه السجن فى بيته ، وظلت تراقب نشاطه الفكرى حتى بلغ السبعين من عمره ، وفقد البصر ، ولم يعد فى وسعه ان يقرأ او يكتب

وكان رجال الدين منقسمين حيال افكاره الى فريقـــين : فريق من المستنيرين يود ان ينهض بالكنيسة ، ويلتمس الظروف المخففة لجاليليو ، ويتسامح فى اطلاق حرية البحث العلمى ، مسايرة لحركة التطور ، وفريق من المتعصبين المتزمتين ، وعلى رأسهم رجال محكمة التفتيش ، يتهم جاليليو بالسحر والزندقة والـــكفر

ولقد تمكن الفريق الاول من انقاذ حياة العالم العظيم . أما الفريق الثانى فقد اكتفى بأن يحد من نشاطه ، ويمنع تسرب افكاره ومبادئه الى الشعب

ومع ذلك فبحوث جاليليو كانت قد صادفت هوى من نفوس الكثيرين . فاستفاضت شهرتها ، وترامت من المدن الى القرى ولم تؤثر فى الخاصة فحسب بل جاوزتهـم الى بعض افـــراد ممتازين من ابناء العمال والفلاحين

في احدى القرى الفلورنسية النائية كان يعيش فلاح اجير يدعى « ارماندو فنشنتى » • وكان هذا الفلاح النابغ قد تلقى اصول القراءة والكتابة فى مدرسة القرية • ثم تجلت مواهبه فجأة ، فأقبل على المطالعة والتفكير ، واولع بالبحث العلمي والفلسفة المتحررة من قيود اللاهوت ، وقرأ بعض رسائل جاليليو ، وتتلمذ عليه ، وشرع يعد هو الآخر بحوثا جديدة فى الفلسفة واصول العلم التجريبى

وكان البعض من اهل قريته يبغضونه اشد البغض ، ويتهمونه بالزندقة والالحاد ، وينهرون نساءهم واولادهم اذا اتصلوا به، ويخافون منه على انفسهم ، وعلى مواشيهم ، وعلى زراعتهم ،وعلى كل ما يمكن أن تمسه يده ، او تقع عليه عينه ، او تطأه قدماه

وطالما نصح هذا النفر بوجوب رفع امر الزنديق ارماندو الى محكمة التفتيش ، ولكن « الام ماريانا » عمة الشاب ورئيسة دير القرية ، والراهبة الجليلة التى اشتهرت بالايمان والصلاح والتقى ، شفعت له عند العمدة وكبار الزراع ، وتمهدت بأن تزوره فى كل اسبوع مرة ، وتبذل قصاراها فى تبديل معتقده وهدايته الى السبيل السوى

وهكذا ظل ارماندو يعيش بمعزل عن اهل قريته ، منطويا على نفسه ، مستغرقا فى وحدته وصمته ، لا يكاد يفرغ من عمله فى حقل عمدة القرية ، حتى يعود الى كوخه ، ويعكف على المطالعة والتأمل ، وهو يفكر فى شيئين فقط : محاولة وضع بحث فلسفى وعلمى يؤكد فيه شخصيته ، ويساهم به فى حركة التحرير التى بدأها جاليليو ، ورؤية الفتاة الرائعة الجمال « فرانشيسكا » بنت العمدة التى كان يحبها ، والتى اقبلت عليه كدنيا من الجمال والسحر ، فكانت هى المخلوقة الوحيدة التى ميزته ، وعطفت عليه ، واعتنقت آراءه ومبادئه ، واشعرته

انه بطل مكافح خليق بالاعجاب والتشجيع والحب !

وهاهو ذا ارماندو فى كوخه يفكر الساعة فى الفتاة ، كما لم يفكر فيها ابدا من قبل ! اليوم يوم أحد وهو على موعد منها! انه ينتظرها على أحر من الجمر ! ويجب .. يجب أن تسرع اليه فى غفلة من والدها ومن إهل القرية جميعا ،ويجب أن تتشجع هى ايضا وتجازف وتغامر ، والا ضاعت الفرصة السانحة وانهار فى لحظة كل شيء !

وفتح ارماندو باب الكوخ ، وأطل منه برأسه وهو يرتعد . كان يعلم انه قد اخطأ مساء امس خطأ مروعا ، خطأ فظيعا ، عندما تحمس لفكرته ودعوته ، وتهور فى مناقشة شيخ من وجهاء القرية يدعى « جايتانو » ، وصارحه مستكبرا متحديا ، بانه قد تمكن من تحقيق حلمه ووضع بالفعل رسالة جامعة يؤيد فيها افكار جاليليو ، ويدعو الى نشر التعليم التجريبى الصحيح الحر ، القائم على فضائل الاستقراء والاستنتاج والتحليل ، التى يكرهها المتعصبون المتزمتون ويقفون لصاحبها بالمرصاد

هذه الرسالة التى وضعها ارماندو ، والتى كشف لذلك الشيخ المحافظ المتعصب الرجعى عن سرها ، اصبحت بين عشية وضحاها حديث القرية ، وذعر الفلاحون الذين باتوا ولا هم لهم الا ان يحصلوا عليها ، ويحرقوها ، ثم ينكلوا بصاحبها وينتقموا منه شر انتقام

اجل . الرسالة الآن فى حوزة ارماندو . ولكنه لابد أن يسرع بانقاذها . لابد أن يسرع بالتخلص منها . لابد أن يسرع باذاعتها ونشرها والا قد يهبط به الفلاحون فى اية لحظة ،وقد ينتزعونها منه ، ويسومونه من أجل حريته وجرأته وعناده شر الوان العذاب !

وتلفت يمنة ويسرة فلم يبصر احدا . كان الجو غائما ،

والسحب الكثيفة تنعقد فى صفحة السماء ، وتتخذ اشكالا غريبة تلقى الرعب فى القلوب • وفجأة عصفت الريح ، ودوى الرعد ، وانهمر المطر ، وهزت الطبيعة جوانب الكوخ • فانخلع قلب إرماندو ، واوشك أن يطوح به اليأس • ولكن السماء وقد مسها سحر ساحر ، عادت الى صفائها بغتة . فسكن الرعد ، وانقطع المطر ، واشرقت الشمس ،وانصبت سيولا من فضة على القرية الصغيرة الكئيبة النائية

وتنفس ارماندو الصعداء ، وهم بالخروج من كوخه عساه أن يلمح الفتاة وهى مقبلة عليه من إقصى الطريق • وعندئذابصرها أبصرها فى ثوبها الاسود السابغ جميلة جمالا يخلب الالباب ترتعش ، وتنتفض ، وتحث خطاها ، وهى تتطلع الى حبيبها عن بعد ، وقد ارتسمت على وجهها البيضاوى الشاحب المعتز ، ابتسامة حزينة تشبه دمعة مريرة ، شاع فيها الالم والخوف والشوق والحنان

ودخلت الفتاة الكوخ • دخلت ولم تتكلم •• لم تتكلم كعادتها وارتمت على المقعد الخشبى الصغير ، واشرأبت بعنقها ، وحدقت الى عينى ارماندو وهى تلهث • وكانت مفتونة بسحر عينيه اللتين يشع الذكاء منهما اشبه ببرق خاطف • فطفقت تتأمل سوادهما القاتم المهيب ، وبياضهما الناصع الرجراج ونظراتهما الجريئة الصريحة ، وأهدابهما الطويلة المتراقصة ، وذلك الحظ العاثر الذى يرفرف عليهما كطائر بغيض مشئوم !

وانحنت على الشاب كعادتها أيضا وقبلت عينيه . فأثارته انفاسها الحارة ، وحاول أن يضمها الى صدره . ولكنه كان يحترمها بل يقدسها . فاكتفى بأن قبل جبينها ، ولثم يديها الصغيرتين ثم إقصاها عنه فى رفق وهم بالكلام ولكنها لم تمهله وقبل ان تتحرك شفتاه ، عانقته فى لهفة مخبولة ، ثم عاجلته فى صوت متقطع متهدج ، وهى تحتويه بين ذراعيها وتتفرس

فى عينيه الساحرتين وترتجف :

ـ يجب أن تفر يا ارماندو ! يجب أن تخرج حالا من هنا ، وان تحتجب فى أى مكان ! ان تسرع الى الدير وتلوذ بعمتك الراهبة رئيسته ، او تتسلل الى احد المذاود ، او تختفى فى اية صومعة من صوامع الغلال !

فحملق الشاب فيها وغمغم :

ـ ولماذا ؟ هل عقدوا العزم على الثأر منى ؟ وهل ترامى اليك انهم ابلغوا امرى الى محكمة التفتيش ؟

فهتفت الفتاة :

انج بنفسك ! انت تعلم ان من تقاليدهم أن يطهروا قراهم بأنفسهم ، حتى اذا ما اقبلت هيئة محكمة التفتيش ، فـازوا باعجابها ورضاها ، وتلقوا منها البركة الدائمة ، واشتروا من رئيسها « صكوك الغفران » فى الجنة بلا مقابل ! فانج بنفسك انهم قادمون اليك بعد لحظات ! لقد اجتمعوا فجر اليـوم فى بيتنا ، وشاوروا والدى ، ثم اتفقـوا على اقتحـام دارك ، واستجوابك امام اهل القرية جميعا ! فأنا اتوسل اليـك أن تختفى ! التمس منك أن تفر ، والا فات الوقت يا ارمـاندو واستهدفت لنقمة الجماهير المتعصبة الثائرة !

فأطرق الشاب لحظة ثم صاح :

ـ والى اين تريدين ان اذهب ! لابد أن يعثروا على ، حتى لو لجأت الى الدير ! سأبقى هنا ! ماذا تهمنى حياتى ؟ المهـم هو رسالتى ! كان فى نيتى بعد أن تهورت ليلة أمس فى حـديثى مع المزارع الشيخ جايتانو ، أن اذهب توا واسلم الرسـالة لصديقى « برونو » . ولكنى كنت لم انجزها بعد فسـهرت الليل بطوله ، ولم استطع أن اتمها الا منذ ساعة فقـط ، ثم خشيت أن انا حملتها الى برونو فى وضح النهار ان افتضح ! فالمهم هو هذه الرسالة يا فرانشيسكا . أتفهمين ؟ المهـم هى

لا أنا ! انها معقد إملي وغاية حياتي ! المهم هو ألا تقع الرسالة في ايديهم ! المهم هو ان تصل الى المدينة ، وان تطبع هناك وتنشر وتذاع ! وانت ، انت يا فرانشيسكا ، انت التى فى مقدورك وحدك أن تنقذيها ، وتنقذى فكر صاحبها من الموت والفناء !

فقالت الفتاة وقلبها يتمزق :

ـ اذا كان فكرك يجب أن يعيش ، فأنت ايضا يجب أن تعيش ! يجب أن تعيش من اجل فكرك ، ومن اجلى انا ايضا اذا كنت حقا تحبني ! اعطني الرسالة ! سأخفيها عندى ، ثم قل لهم انك احرقتها . وهكذا تنجو اليوم منهم ، ثم أحاول انا بعد ذلك أن اتصل بصديقك برونو ، وان أحمل اليه الرسالة كي يحملها بدوره الى جماعة « انصار العلم » فى المدينة !

فحدق اليها ارماندو بعينين متقدتين وصرخ :

ـ ولكنك لا تعلمين أن رجال محكمة التفتيش يتعقبون برونو ، لانهم فطنوا الى انه عضو عامل فى جماعة « انصار العلم » القرية كلها كانت تجهل بالامس حقيقة برونو ، كما هى تجهل اليوم انه مراقب ومهدد ! ولقد كاشفني بذلك مساء أمس ، وقال لى انه سيغادر القرية ظهر اليوم ، ويفر من رجال محكمة التفتيش ، قبل أن يغافلوه ويلقوا القبض عليه ! فالرسالة يجب أن تسلم الى برونو الآن ! الآن ! قبل الموعد الذى اعتادت ان تزورني فيه عمتي الام ماريانا كل يوم احد لتعظني وترشدني ! فعليك انت ان تحملى الرسالة الى صديقى ! لن تتطرق اليك اية شبهة يا فرانشيسكا ! لقدالفت زيارةبيوت الفقراء والاحسان اليهم . فخذى الرسالة ، واقصدى من فورك بيت برونو ، وسلميها اليه قبل ان يرحل ! أما انا فلو ذهبت بنفسى فقد أصبح موضع ريبة ، او قد يعترضنى الفلاحون الساعة ، ويقطعون على الطريق ! لابد لي من البقاء هنا ! لاتخافى

لن اتحداهم • لن استفزهم • سأقول لهم فقط ان الرسالة فقدت منى ، وستشفع لى ايضا عندهم مكانة عمتى الام ماريانا الراهبة الجليلة رئيسة الدير فاطمئنى • اطمئنى وخذى !

وهم بأن يفتح درج خزانته ، ويسلمها الرسالة • ولكنها اختلجت اختلاجا عنيفا ، وتقهقرت بالرغم منها ، ودب فيها ذعر طارىء لم تستطع أن تكبحه • فتطلع اليها لحظة وجمد • عز عليه أن يراها تضعف وتتخاذل وتتردد • فعبس فى وجهها وقال :

ـ أترفضين ؟

فشخصت اليه فترة ، وتأملت عينيه الساحرتين وهى ترتعش ثم عضت على شفتيها ، واستجمعت قواها ، ورفعت رأسها فى عزة وشموخ ، وقالت :

ـ هات الرسالة !

فناولها اياها فى سكون • فقالت :

ـ سأعود اليك لاطمئنك ، وسأحاول أن أكون هنا قبل موعد زيارة الام ماريانا !

فجاشت عواطف ارماندو ، وانفجرت كوامن حبه واعجابه وشكره ، فضم الفتاة الى صدره ، وغمر وجهها ويديها بالقبلات



وانطلقت الفتاة بعد ان دست الرسالة فى صدارها ، والتفتت الى حبيبها وتزودت منه بنظرة • ولكنها قبل أن تتجه صوب منزل برونو الكائن فى اقصى القرية ، ابت الا أن تزور بعض الفقراء ، وتحسن اليهم كعادتها ، عسى أن يستجيب الله الى سؤلها ، فيكلأ ارماندو بعين عنايته ، ويحفظه من كل أذى ويجنبه شر هذا اليوم العصيب

ودخلت بعض الاكواخ وارماندو يرقبها ثم خرجت مسرعة ، والتفتت اليه مرة ثانية وابتسمت ، ثم حثت خطاها فى نشاط وعزم ، وغابت عن بصره بغتة ، واختفت فى ازقة القرية

وانقضت لحظات •• لحظات طويلة •. لحظات خيـل الى الشاب ان سكونها عامر بالطمأنينة وانه لن ينقطع • وفجـأة ترامت الى سمعه جلبة بعيدة ، جلبة مشوشة عنيفة كأنهـا زفيف ريح ، او هدير موج ، او زئير عاصفة • فتنبه وادرك• ادرك أن الساعة قد دنت ، فلم يضطرب ولم يجزع ، بل فتح باب الكوخ عن آخره ، وجلس على عتبة الباب ، وطوى ذراعيـه على صدره وانتظر

وفى مثل لمح الطرف أبصر جمـوع الفلاحـين تنطلق من الزقاق المجاور ، وتقبل عليه ، مائجة مصطخبة هادرة ، وفى طليعتها المزارع الشيخ جايتانو مصحوبا بعمدة القـرية والد فرانشيسكا

وتقدم المزارع الشيخ واهاب به :

ـ انهض !

فنهض ارماندو متثاقلا ولم يتكلم • فدنا منه العمدة وقال فى صوت جهير : ـ انت تعلم اننا لا نقر الهرطقة او الزندقة ، وان قريتنا كانت حتى اليوم طاهرة ومنزهة عن كل مروق • فادخل كوخك على عجل ، وعد الينا بالرسالة الخبيثـة التى كتبتها • والا فلن يكون فى وسعى ان احميك من غضب هؤلاء المؤمنين الصارمين الاتقياء !

فقال ارماندو فى هدوء :

ـ الرسالة فقدت منى !

فاستشاط غضب المزارع الشيخ وصاح :

ـ ألم تحدثنى بالامس عنها ؟ ألم تذكر انك كنت مـا تزال تكتبها ؟ أنت كاذب ! انت عضو فى تلك الجمعيـة الملعونة !

لقد اخفيت الرسالة ويجب أن تظهرها ، والا فلن نرعى لعمتك الراهبة اية حرمة ، ولن نطمئن حتى نعاقبك بأنفسنا ، قبل أن نسلمك الى رجال محكمة التفتيش !

وقطب العمدة حاجبيه وقال :

ـ اولى بك أن تطيع !

فردد ارماندو :

ـ الرسالة فقدت منى !

فقال العمدة فى صوت باتر :

ـ اذن فسنفتشك ونفتش الكوخ !

فغمغم ارماندو وهو يرفع ذراعيه :

ـ تفضلوا

فارتمى عليه المزارع الشيخ وفتشه . ولكنه لم يعثر فى جيوبه على شىء • وعندئذ وثب الفلاحون الى الكوخ ، واقتحموه وشرعوا يبعثرون امتعته ، ويقلبون اثاثه ، وينبشون كل ركن فيه • ولما اعياهم البحث ، اشتد بهم السخط والحنق ، فتدفقوا الى الخارج ، واحاطوا بالشاب ، واقترح بعضهم أن يسوقوه عنوة الى بيت العمدة ، وان يطرحوه فى احدى الزرائب شهرا كاملا بلا طعام او شراب ، ثم يسلموه جثة هامدة الى رجال محكمة التفتيش • ولكن العمدة الذى كان يريد انقاذه اكراما للراهبة عمته ، وحرصا على مكانتها ، واعتزازا ببركة وجودها فى القرية ، أسرع اليه ، ونحى الجمهور عنه ، وقال له فى لهجة مترفقة وحازمة :

ـ اذا كنت قد فقدت الرسالة حقا ، فيمكنك على الاقل أن تنكر ما جاء فيها • نعم ، يجب أن تنكر كل ما كتبت ، وتعلن على رءوس الاشهاد انك كنت بالامس مارقا ، ولكنك ثبت اليوم الى رشدك ، وآليت على نفسك أن تعود الى حظيرة الايمان نادما مستغفرا ! اعترف • قل أمام الجميع انك تؤمن بالله ،

وتعاليم الدين ، ثم عاهد نفسك على التوبة واستغفر !

فنصب ارماندو قامته ، وتوسط جمهور الفلاحين وصاح :

ـ اني أومن بالله ورسله وانبيائه واليوم الآخر ! أؤمن بالدين ، ولكنى اؤمن بالعلم ايضا ، لان نور العلم من نور الدين أي من نور الله ! العلم هو العقل ، والدين هو القلب والضمير والروح . فهل يمكن أن يستغنى الانسان عن عقله ، وهل يمكن أن يستغنى الانسان عن قلبه وضميره وروحه ؟ واذن فلا بد من علم ولا بد من دين . وانا اؤمن بالدين ولكنى لا أستطيع أن اكفر بالعلم !

فسرت بين الفلاحين غمغمة طويلة ، وهتف احدهم :

ـ العلم هو علم الدين ، أما علمك انت فهرطقة وزندقة . انت تريد استخدام فلسفتك وعلمك لهدم الدين !

فصاح ارماندو :

ـ الدين متأصل فى طبيعتنا وهو اقوى وارسخ من ان يزعزعه اى بحث علمي او فلسفى ! لا بد من دين للام التى فقدت وحيدها . لابد من دين للمريض المعذب اليائس . لابد من دين للفقير التاعس المحروم . لابد من دين لروح الانسان التى تصبو الى اللا نهاية ! ولكن الحرية ، حرية البحث العلمي المجرد ، هى التى تدفعنا الى التقدم . هى التي تجعلنا اقوياء ، وتعاوننا على فهم الطبيعة ، وتكشف لنا عن اسرارها وتسخرها لخدمتنا ، وتمكننا من مكافحة بؤسنا وامراضنا وتلطيف وطأة الالم البشري الذى نعانيه !

فصاح المزارع الشيخ :

ـ انه يكابر بدل أن يسلم ! انه يبشر بدل أن يستغفر !

وامسك بتلابيب الشاب وواجهه بالجمهور المتربص المتحفز واستطرد :

ـ قل أن العلم كله مرصود فى كتاب واحد هو الكتاب

المقدس ! قل انك لن تقرأ غير هذا الكتاب ، وان مافيه يغنيك ويغنينا عن أى كتاب آخر لانبغ واعظم انسان . قل .. قل ان الارض لا تدور !

فحدق اليه الشاب ، وقال :

ـ بل تدور !

فارتفعت صرخات الفلاحين مستنكرة متوعدة . وشق المزارع الشيخ جلبابه ، وهتف :

ـ أرأيتم ؟ انه كافر ! انه ساحر ! انه يلوث قريتنا ،ويجلب علينا لعنة الله ! اثأروا من المارق ! عاقبوا الملحد الاثيم الشرير!

فانقض الفلاحون على ارماندو ، وجذبوه من شعره وذراعيه واطراف ثوبه ، وجروه على الارض جرا ، واوسعوه ضربا وركلا وبصقا ، وهم يصيحون :

ـ لن يكتب بعد الآن ! لن يكتب ولن يقرأ !

واحتواهم شبه مس من جنون . فأنشبوا اظافرهم فى وجهه وامعنوا فى ضربه وسبه ، ثم دفعوه دفعا الى شجرة كبيرة قائمة فى احدى زوايا الحقل الفسيح ، وهو فى وسطهم ، حائر تائه شارد ، يتطوح كالخرقة البالية ، ويئن ويزفر ، وقد انهارت قواه ، واحتقن وجهه ، وتنكر وتشوه ، وسالت منه الدماء

ولما اقتربوا من الشجرة الكبيرة ، أسرع احدهم وجاء بحبل ومطرقة وسيخ من حديد ، وصاح :

ـ يجب ان نكسر عظام يديه كى لا يكتب ، ويجب أن نفقأ عينيه كى لا يقرأ ولا يرى ! يجب أن يصبح منذ الآن عاجزا وضريرا كأستاذه الملعون جاليليو !

فقصفت صيحات الفلاحين كالرعد ، وارتموا على ارماندو ، وهموا بأن يشدوا وثاقه . ولكنه وقد تصور نفسه مشلولا واعمى ، جن جنونه ، واستشعر بغتة بقوة خارقة لم يكن ليحلم بها . فمد ذراعه التى استحالت الى شبه قطعة من فولاذ ،

واقصى الفلاحين عنه وصرخ :

ـ اقتلوني ! اولى بي أن اموت ، من أن اعيش مشلول اليدين واعمى !

وحاول أن يختطف المطرقة ويضرب بها رأسه . ولكنهم اطبقوا عليه ، وانتزعوها منه ، والصقوه بالشجرة ، وشرعوا يشدون وثاقه .

واذ ذاك ، وبيناهم يهتفون ويهللون ، ترامت الى سمعهم صرخات بعيدة ممزقة ، ثم لاحت لهم فرانشيسكا ، ثم اقبلت عليهم مندلعة العينين ، مفغورة الفم ، محلولة الشعر ، وشقت جموعهم ، واندفعت نحو ارماندو ، وصاحت وهي تطوقه بذراعيها :

ـ لن تمسوه بسوء ! اطلقوه أو عذبوني معه ! لن اتخلى عنه ! انني احبه ! انني أحبه وهو خطيبي !

فتراجع العمدة والدها مبهوتا ، وجحظت عيناه ، وارتعدت فرائصه ، واصابه من فرط الدهشة والذعر والسخط شبه ذهول . فاتجه الفلاحون من فورهم نحوه ، واحاطوا به وصرخوا :

ـ أحقا هي خطيبة هذا الشقي ونحن لا نعلم ؟ وانت ؟ انت ؟ أرضيت بهذا انت والدها ؟ تكلم !

فصاح العمدة في نبرة مرتعشة ، وهو يرتجف ويبرز ايقونة صغيرة للعذراء ويلوح بها امامهم :

ـ اقسم لكم ، اقسم بالله العظيم ، وبالعذراء الطاهرة اني لا اعلم شيئا ! لقد خدعتني الفتاة ! ضللتني وخدعتني ! لابد انها كانت تتصل بهذا الشقي وانا لا اعلم !

وانقض على ابنته كوحش كاسر ، وامسك بخناقها ، واهاب ببعض الفلاحين وهو يدفعها اليهم :

ـ احملوها الى خبائها ! لن ترى الشمس قبل أن تتطهر

من ذنبها ! سأعذبها ! سأسومها اقسى ضروب الصلاة والصوم والجوع كى تكفر عن خطيئتها ! احملوها الى الخباء ! اما شريكها الزنديق فيجب ان يلقى جزاءه دون رحمة !

فرددت فرانشيسكا وهى تتشبث بأرماندو :

ـ لن اتخلى عنه أبدا ! اما أن تطلقوا سراحه ، واما أن تعذبونى معه !

فزجرها المزارع الشيخ وقال :

ـ والدك هو الكفيل بتأديبك ! فلتحمل الى الخباء ! اما انتم فامضوا فى معاقبة هذا الشقى !

فطاش صواب الفتاة ، وغالبت الفلاحين جهدها ثم تملصت منهم ، وارتدت الى حبيبها وصاحت :

ـ اذا كان لابد ان يتعذب ، فيجب ان اشاركه العذاب ! فاسمعوا اذن . الرسالة لم تفقد ! الرسالة كانت معى ! تسلمتها اليوم من ارماندو ! وأنا .. أنا التى حملتها بنفسى الآن الى برونو ! وبرونو من جماعة أنصار العلم مثلنا ، ولقد فر ! فر من القرية قبل أن يقع بين أيدى رجال محكمة التفتيش الذين يتعقبونه ! حمل الرسالة وفر بها الى المدينة ! ولسوف تطبع الرسالة هناك ! سوف تطبع وتنشر ! اتسمعون ؟ وهذا .. هو البرهان !

وكشفت عن صدارها واردفت :

ـ قلادة فيها صورة للعالم العظيم جاليليو ، صنعها برونو بنفسه ، ونقش اسمه عليها ، واهدانى اياها الساعة قبل أن يرحل ! هاهى ذى !!

وانتزعت القلادة من عنقها ، ودفعتها الى المزارع الشيخ . فتراجع الفلاحون ووجموا ، واشرأبوا بأعناقهم الى العمدة وهم يلهثون . فشخص الرجل الى ابنته ، وظل يحدق اليها رازحا جامدا مأخوذا

وفجأة ، أجال الطرف حوله كمعتوه فأبصر العيون مصوبة اليه تدمغه بالجريمة ، وتطوقه بالخزى والعار . ففلى الدم فى عروقه ، ولم يتردد وارتمى بجمعه فى غمرة الفلاحين وصرخ :

ـ ارجموا الشقيين !

فتعالى الهتاف مدويا ، واسرع الفلاحون فشدوا الفتاة الى الشجرة واوثقوها خلف حبيبها ثم انطلقوا فى جنبات الحقل الفسيح يجمعون الاحجار

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الغاشمة الفاصلة ، اخترق هدير الجو صوت متهدج ممزق . وشوهدت امرأة تعدو ، مهرولة فى ثوبها الابيض الفضفاض ، رافعة ذراعيها كجناحى طائر قدسى ، مقبلة على الجمع اقبال سيل متدفق حى . فاضطرب الفلاحون وذهلوا ، ثم عادوا فالتأموا بعد ان جمعوا قطع الاحجار ، ثم احاطوا بالمرأة ، وتطلعوا اليها وهم يرتجفون ويتمتمون :

ـ الام ماريانا ! الام ماريانا !

وتقدمت الراهبة الجليلة رئيسة الدير ، وامسكت بذراع المزارع الشيخ جايتانو ، وطفقت تهزها هزا عنيفا ، وتصيح :

ـ الرحمة ! الرحمة ! لم يقل الدين بهذا ! حاشا للدين ان يأمر بهذا ! الدين تسامح ومحبة ورحمة ! لا يمكن ان تكون شريعة الغابة هى شريعة الله !

واردفت ملتمسة متوسلة وهى تنحنى على يد الشيخ وتوشك ان تقبلها :

حلوا وثاق الشاب والفتاة ! هبونى حياتهما وخلاص نفسيهما ! دعونى احملهما الى الدير ! وانا .. انا الكفيلة بردهما الى محجة الصواب والهدى !

فأهاب الشيخ بالفلاحين :

ــ لا تصغوا اليها ! انها تخون رسالتها لغرض فى نفسها ! انها تريد انقاذ ابن اخيها !

فأبرقت عينا المرأة وصاحت :

ــ ليس لى اهل ولا ولد ! الله هو اسرتى ! وانا انما اذود عن الدين الذى تريد انت بتعصبك ان تقتله !

وتحولت نحو العمدة واردفت :

ــ الا ترتعد ؟ الا تخجل من نفسك ؟ شعورك بالعار والخوف هو الذى يدفعك الى التضحية بابنتك ، لا اخلاصك للدين ! لن يتم هذا ! لن تقتلوا الابرياء . لن تقتلوا العقل البشرى باسم الله !

فألقى العمدة عليها نظرة من نار ، ودفعها عنه ، وصرخ :

ــ ارجموا الشقيين !

فانهالت الاحجــــار كالمطر على الشاب والفتــــاة ، ودوت صرخاتهما فى الجو متفطرة متحشرجة ، ثم خفتت الاصوات ، وتبددت وتلاشت ، وتدلت جثتا الشهيدين على جذع الشجرة ، اشبه بفريستين مذبوحتين . فمزقت الراهبة ثوبها ، وعفرت رأسها بالتراب ، وزحفت نحو الجثتين ، والدمع يتفجــــر من عينيها ، ثم نظرت الى العمدة الجبار ، والمزارع القــــاسى ، والفلاحين المتعصبين المخبولين ، ولم تســــتطع الا ان تضرب صدرها بيديها ، وترفع الى السماء بصرها المتضرع المستصرخ ، وتردد كلمة السيد المسيح :

ــ اغفر لهم يا ابت .. اغفر لهم فأنهم لايعلمــــون ماذا يفعلون !

وغابت عن صوابها ، وسقطت على الارض مغشيا عليها !

« تم »

الفهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان و الاقليم الشمالى :	وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت
العراق :	السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد
اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
جدة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣
البحرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١
البرازيل :	Dr. Michel H. Tomé, Paeto Do Colegio No. 3 3° Andar — Sala 9 SAO PAULO — BRASIL
غانا :	Mr Joseph Hassan, The Cine Travel Co., P.O. Box 1883, ACCRA, GHANA
نيجريا :	Mr Mohammed Said Mansour, P.O. Box 652, LAGOS, NIGERIA
سيراليون :	Messrs. Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Sierra Leone
سنغافورة	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE

هـذا الكتاب

التاريخ حافل بقصص البطولة والشهامة ، وفى ثناياه نعثر على أحداث المغامرات الوطنية والقومية ، الرائعة التى تأخذ بالالباب . وفى هذا العدد من كتاب الهلال طائفة مختارة من هذه القصص ، ونخبة ممتازة من المغامرات الوطنية والقوميةجمعها الاستاذ ابراهيم المصرى من مختلف المصادر ومتباين الاسفار ، فكان كالصياد الذى يغوص فى غمار اليم ليأتى من أعماقه بالدر ثم كان كالصائغ الذى ينكب على دره ، ويصوغ منه مختلف البدائع وهكذا فعل الاستاذ المؤلف فى اختياره لهذه الاقاصيص ،فانتقاها واختارهاوأحسن الاختيار ثم صاغها فى أسلوبه الشائق الجميل

ولم يقع الاختيار على أمة دون امة ، ولا شعب دون شعب بل شمل الاختيار الكثير من الامم . ولم يقتصر على عصر دون عصر ، بل تناول متباين العصور . وقد استهل العدد بقصة رائعة مشوقة عن وثبة الاسلام ، وسيحس القارىء وهو يطالع هذه القصة الممتعة ، بل وما تلاها من القصص ، انه مسوق بقوة دافقة غلابة تدفعه دفعا لمتابعة القراءة حتى ينتهى من الكتاب